محاضرات
في
الشعر العباسي

إعداد

د. عزت عبد العليم محمود
مدرس الأدب العباسي والنقد
كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

العام الجامعي
٢٠٢٣-٢٠٢٤م

بيانات الكتاب

الكلية: الآداب بقنا

الفرقة: الثالثة

التخصص: اللغة العربية

عدد الصفحات: ١٦٠

المؤلف : **د. عزت عبد العليم محمود**

أهداف المقرر

١- التعرف على أهم مصادر الشعر العربي في العصر العباسي.
٢- جمع أساليب ومناهج دراسة النصوص الشعرية في العصر العباسي .
٣- تمكين الطالب من مهارات نقد النصوص الشعرية للعصر العباسي.
٤- الوصول إلى مصادر الشعر العربي في العصر العباسي باستخدام شبكة المعلومات العالمية.

المحتوى

تمهيد : عوامل ازدهار الأدب في العصر العباسي	٤
الفصل الثاني: نصوص من الشعر العباسي.	١٣ـ ٨٦
١- قصيدة الربيع لأبي تمام .	١٤
٢- قصيدة أبى تمام في مدح المعتصم	٢٢
٣- سينية البحترى " صنت نفسي".	٣٨
٤- قصيدة الذئب للبحتري .	٥٦
٥- قصيدة (الحمى) للمتنبى.	٧٢
٦- المتنبي يعاتب سيف الدولة .	٨١
الفصل الثاني: من موضوعات الشعر العباسي .	٩١ ـ ١٥٩
١- الخلافة وموقف الشعراء من خلفاء الدولة العباسيَّة	٩٢
٢- الموالي والشعوبية	١٠٤
٣- الفتن والثورات	١١٤
٤- التَّرف والجواري ومجالس اللهو والمجون	١٢١
٥- الزَّندقة والزُّهد والتَّصوف	١٣٠
٦- السجن والأسر	١٣٨
٧- الطبيعة ومظاهر الحضارة	١٤٦
٨- الموت	١٥٣

مقدمة

إنَّ الحياة السياسيَّة و الاجتماعيَّة فى دولة بني العباس - خاصَّةً في القرنين الثانى والثالث الهجريين- قد أصبحت " زاخرةً بكثيرٍ من المستجدات التى طرأت على بنية المجتمع الاسلامى ، وهى امتدادٌ طبيعىٌ لما كان سائدًا فى النصف الثانى من القرن الأول ، إذ تأثرت الأحوال الاجتماعية حينذاك بعوامل لها شأنها فى تشكيل وجه المجتمع الجديد ، هذه العوامل التي ساهمت فى تغيُّر وضع الجماعة المسلمة من العرب والموالى ، وامتزاج الحضارات المختلفة ، وتأثيرها فى حياة الناس من حيث مستوى المعيشة والخروج على التقاليد ، والتحلل من الالتزام بأساليب العيش القديمة "[١] .

ولم يكن الشعر بمعزلٍ عن تلك المتغيرات ؛ فالشاعر بمواهبه العقلية ، ومكوناته الفكريَّة وُجِد ليسجِّل كثيرًا من الوقائع التى تدور فى محيطه الاجتماعى ، ويعزف على وتر الحياة المشدود أناشيده الذَّاتيَّة التى يبرهن بها على أنَّ وجوده جزءٌ من مجتمعه لايمكن أن يكون بمعزلٍ عنه ، وأن يتقوقع فى دائرةٍ ضيقةٍ تجعله يعيش لنفسه فقط [٢] ، كما أنَّ الشعر المميز فنًا هو ذالك " الذى نلمس فيه حرارة العواطف وصدق التعبير ، هو ذلك الشعر

---

(١)موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى : محمد زكى العشماوى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٥٢ .

(٢)نظرية الأدب : رينيه ويليك ، وأوستن وارين ، ترجمة محى الدين صبحى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٧ م ، ص ٩٧ – ١١٤.

الذى يتحدث فيه قائله عن ذاته ، فيعبر عن مواقفه ومشاعره الخاصة التى تركت التجارب آثارها الحادة فى نفسه ، فاستخلص لبابها ، وأخرجه للناس فى دفقاتٍ شعريةٍ مؤثرةٍ ، فيها المعانى العظيمة ، والتصوير الحىُّ ، وذلك عندما يعبر عن قضاياه الذَّاتيَّة ، وقضايا أمته ، ويبين عمًّا فى نفسه تجاهها ، فى صورٍ صادقةٍ لاتكلُّف فيها ، وهنا نلمس عمقًا ونضجًا قد لايتوافر فى أغراض الشعر العربى الأخرى التى ترتبط بالمناسبات ، والتى تباعد بين الشعراء وبين أنفسهم وتفرض عليهم نمطا من القول قد لايحسُّون بتفاعلهم الذَّاتىّ معه" (٣) .

فمع ظهور مجموعة من العوامل السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والفكريَّة التي طرأت على المجتمع العربي في القرن الثاني الهجري " التفت الشعراء إلى أنفسهم يفتِّشون فى حناياها عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، وعكفوا على قلوبهم يستنطقونها فتجيبهم وتفتح مغاليق أسرارها لهم ، فلم يعد تغزُّلهم مجرد وصفٍ حسىٍّ جامدٍ لامرأةٍ مثاليةٍ فى جمالها وفتنتها ، ولم يعد وصفهم لمظاهر الطبيعة بعيدًا عن مشاعر نفوسهم وإحساساتها ، بل اندمجوا فى تلك المظاهر اندماج الألفة والمشاركة الوجدانية ، وكانوا يقيسون حالات نفوسهم بحالاتها ، ويقرنون خفقات قلوبهم بخفقاتها " (٤) ؛ مما جعل الشعراء يبحثون عمًّا هو غير مألوفٍ من المعانى الجديدة لتساير هذا الاتجاه في الشعر

---

(٣)الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : ظافر عبدالله على الشهري ، رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٠ م ،ص٨ .

(٤) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف ،١٩٦٣م ، ص١٧٤ .

العربى ؛ الأمر الذي أيقظ جميع حواس الشاعر ونبَّهها تنبيهًا كبيرًا ؛ ليستخرج أعمق مافى باطن الأشياء من أسرارٍ ، وليكشف عن أغرب خصائصها ، وأول مانلاحظه أنَّ الشعر لم يكن له بدٌ من أن يقوم مقام الفن التصويرى ، وأصبح الشعر تصويرًا ورسمًا لما تجيش به نفس الشاعر ويضطر إلى إبرازه فى صورة من الألفاظ ، وقد قويت فى الشعراء رغبةٌ عظيمةٌ للنظر بأعينهم ، وقامت فى نفوسهم حاجةٌ إلى النظر فى الأشياء نظرةً فنيةً ، وإلى الإبانة عنها إبانةً توضحها لهم ، وهذا لم يعرفة العرب الأولون ؛ فقد كان فنهم فنًّا لغويًّا أداته الألفاظ[٥] .

وهذه الطريقة الجديدة قوَّت ماعند الشعراء الموهوبين من ميلٍ طبيعىٍّ إلى الاستقلال فى رؤية الأشياء بعيونهم لابعيون المتقدمين وإلى الابتكار فى عبارتهم تقويةً كبيرةً ، وأصبح لايحمد لهم أن يسيروا على المناهج السهلة المطروقة ، ولهذه الطريقة الجديدة يرجع الفضل فى هذه الملاحة الطبيعية ، فإنهم أتوا بمعانٍ مامرت قطُّ بخاطر جاهلىٍّ ولامخضرمٍ ولا إسلامىٍّ ، وكانت عادة الشعراء ، فيما سلف ، أنهم كانوا يشبِّهون الخدود بالورد ؛ أمَّا اليوم فإنَّ الورد يشبه بالخدود يضاف بعضها إلى بعضٍ [٦] ، بحيث أصبحت نزعة التعبير عن الذَّات وتصويرها نزعةً موجودةً فى فنون مختلفة من شعر هذا

---

(٥) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : آدم متز ، ترجمة : محمد عبدالهادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، د.ت ، ٤٧٨/١ .

(٦) السابق : ٤٧٤/١ .

العصر ، " وجِدت فى المدح كما وجِدت فى التغزُّل والرثاء والوصف ، وأغراض كثيرةٍ أخرى ، والأهم من ذلك أنَّها وجِدت فى قصائد ذاتيَّةٍ خاصةٍ بناحيةٍ معينةٍ من نفس الشاعر يريد أن يطلعنا عليها" (٧).

(٧)اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : مرجع سابق ، ص١٧٥.

تمهيد :

- عوامل ازدهار الأدب في العصر العباسي

جاءت الخلافة العباسيَّة بمجتمعٍ " يختلف فى تكوينه وتركيبه وثقافته وعاداته عن المجتمعات السابقة فى صدر الإسلام وعهد بنى أميَّة ومرحلة النقلة من الأمويَّة إلى العباسيَّة ، إنَّه مجتمعٌ نشأ أبناؤه وولدوا فى ظلِّ " العباسيَّة " بكلِّ ما تميَّزت به من سلوكٍ ثقافيٍّ وانفردت به من تحلُّلٍ اجتماعيٍّ جاء نتيجةً لتغيُّر المجتمع من عربيِّ السلوك إلى فارسيِّ السمات ، ومن إقليميِّ العادات أو بشكلٍ أدقّ من ريفيّ العادات إلى مدنيّ المنزع والمسلك "[٨].

إنَّ الحياة السياسيَّة و الاجتماعيَّة والثقافية فى دولة بني العباس – خاصَّةً في القرنين الثانى والثالث الهجريين– قد أصبحت " زاخرةً بكثيرٍ من المستجدات التى طرأت على بنية المجتمع الاسلامى ، وهى امتدادٌ طبيعيٌّ لما كان سائدًا فى النصف الثانى من القرن الأول ، إذ تأثرت الأحوال الاجتماعية حينذاك بعوامل لها شأنها فى تشكيل وجه المجتمع الجديد ، هذه العوامل التي ساهمت فى تغيُّر وضع الجماعة المسلمة من العرب والموالى ، وامتزاج

---

(٨)الشعر والشعراء في العصرالعباسي الأول: مصطفى الشعكة ، ص ١٧١ .

الحضارات المختلفة ، وتأثيرها فى حياة الناس من حيث مستوى المعيشة والخروج على التقاليد ، والتحلل من الالتزام بأساليب العيش القديمة "[٩] .

ومن خلال هذه المستجدات يمكننا الوقوف على أهم الأسباب التى أدت إلى تطور الأدب العربي تطورًا ملحوظا مع قيام الخلافة العباسية وأهمها :

١-<u>تعدد المذاهب الدينية والسياسية :</u>

اتَّسمت الدولة العباسية، منذ بداية نشأتها، بتغلغل الصراعات فيها؛ نتيجةً لتعدُّد مراكز القوى المتنافسة فيما بينها، وقد ظهرت هذه المنافسة في وقتٍ مبكِّرٍ ، حتّى قبل قيام الدولة في العام (١٣٢) هـ، وبالرغم من ذلك إلَّا أنَّ الخلافة فى هذا العصر بلغت أوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنةٍ مترامية الأطراف لا تقلُّ عن سلطنة رومة فى إبان مجدها ، وكان الخليفة العربى الحاكم المطلق يتصرَّف بشؤون الدولة وأموالها كما يشاء [١٠]، إلا أن ذلك لم يمنع الأحزاب والفرق الأخرى من معارضة العباسيين والخروج عليهم بالسيف والكلمة ، ولدى قيام الدولة العباسية" كان العلويون يرون العباسيين اغتصبوا دولتهم، إذ كانوا يظنون أن الخراسانيين يعملون من أجلهم ، وأن العباسيين صرفوهم عنهم بخبثهم ومكرهم [١١] فقامت ثورات عدة للعلويين

---

(٩)موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى : محمد زكى العشماوى ، ص ٥٢ .

(١٠)أمراء الشعر العربي فى العصر العباسي : أنيس المقدسي ،ص١٠

(١١) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ص٩٢

قضى عليها المنصور ، وقد تراوح تأييد العباسيين للشيعة (أو تعاطفهم معهم)؛ إذ نجد بعض الخلفاء يضيقون عليهم،ويلاحقون شعراءهم على نحو ما كنا نجده عند أبي جعفر المنصور، وبخاصة أن المنصور يعد المؤسس الحقيقي للدولة العباسية؛ إذ توطدت أركان الدولة في عهدة واستتب الأمر للعباسيين، ولا سيما أنه نجح في القضاء على المنافسين الحقيقيين له ولأولياء عهده من أبنائه؛ كقضائه على أبي مسلم الخراساني ، وتتخلص بذلك من منافس عنيد كانت أطماعه في الخلافة بادية للعيان [١٢].

وبعد عهد المنصور وتوالي الخلفاء العباسيين، نجد أن بعضهم كانوا يفرطون في التشيع ويقربون أبناء علي أبي طالب؛ كالخليفة المأمون مثلا الذي بلغ به التشيع حدًا دفعه إلى خلع أخيه المؤتمن عن ولاية العهد وتولية علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، حتى قيل : " إنه هم أن يخلع نفسه ويفوض الأمر إليه ، وهو الذي لقبه الرضا، وضرب الدراهم باسمه، وزوّجه ابنته "[١٣] ، وقد تعددت طوائف الشيعة واختلفت مذاهبهم، من الإمامية الاثنا عشرية و الكيسانية والزيدية و الرافضة .

٢- الفرق الكلامية وعلم الكلام :

كما ظهرت الفرق الكلامية ونشطت نشاطًا ملحوظا وكان أهمها **المعتزلة** حيث يعد المعتزلة من أبرز أصحاب الكلام الذين ظهروا في العصر

---

(١٢) صورة الخلافة في الشعر العباسي : ص٣٨

(١٣) تاريخ الخلفاء : السيوطي ، ص ٣٥١ .

العباسي ، وبخصوص نشأتهم يرى أحمد أمين أنه لما اختلفت الأمة ، في وقت الحسن البصري ، فيمن يكثر من الكبائر من الأمة؛ فزعمت الأزارقة من الخوارج أنه مشرك كافر، وقالت الأباضية منهم أنه موحد كافر وليس بمشرك. وزعمت البكرية أنه منافق . وقال الجمهور الأعظم من الصحابة والتابعين أنه مؤمن بتوحيده ومعرفته بربه، وتصديقه لكتب ربه ورسوله، فاسق بكبيرته؛ فخرج واصل بن عطاء عن أقوال الأمة في هذا الأصل، وزعم أنه فاسق، لا مؤمن، ولا كافر، وجعل الفاسق في منزلة بين المنزلتين ... فلما رأى الحسن خلاف واصل على الأمة، طرده عن مجلسه، فاعتزل إلى سارية من سواري المسجد وأظهر بدعته عندها [١٤].

وقد ظهر علم الكلام نتيجة للتقدم العلمي ورقي الحياة العقلية في العصر العباسي .ويعرفه ابن خلدون بقوله:هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات، عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد[١٥].

٣ – الموالي والشعوبية :

وقد تميّز العصر العباسيّ باختلاط كبير بين الأمم المفتوحة وامتزاجها في السكن والمصاهرة وفي الحياة الاجتماعية والمهن والحرف ..إلخ، بحيث غدت أحياء المدن الكبرى تعجُّ بالعرب والهنود والأحباش والفرس والترك والأكراد

---

(١٤) ضحى الإسلام: ٨٣/١

(١٥) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٥١.

والروم والأرمن وغيرهم، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد - عاصمة العباسيين - نادرًا، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب كانت أمهاتهم من السنديّات أوالفارسيّات أو الحبشيّات أو التركيّات، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم ، غير أنها لم تكد تدخل في نطاق الثقافة العربية حتّى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربيّ امتزاجًا قويًّا، فإذا بنا إزاء حضارة تتألف من أجناس وعناصر مختلفةٍ، فمضت هذه الأجناس تتصهر في الوعاء العربي حتّى غدت كأنها جنسٌ واحدٌ.

ومن هنا أخذت الشعوبيّة [١٦] تظهر على ساحة المجتمع كحركةٍ مناهضةٍ للعنصر العربيّ يعلنها شعراء الموالى صريحةً مدويّةً فى أسلوبٍ من الفخر بالعنصر الفارسيّ ومجده القديم[١٧] ، فقد رأى الموالى أن العرب فى القرن الأول ، وبالتحديد فى خلافة بنى أمية قد خامرهم شعور بأنَّ العربيَّ المسلم خُلِق ليسود ، وخُلِق غيره ليخدم [١٨] ، وأنَّهم أهل السايسة والحرب بينما الموالى أصحاب المهن اليدوية كالصناعة والزراعة والتجارة ، والحياكة وغير ذلك [١٩] ؛ في حين " رأى العرب أن العروبة شرف لا يطوله الموالى الذين لم

---

(١٦) الشعوبيّة: نزعةٌ في العصر العباسى تنكر تفضيل العرب على غيرهم ، وتحاول الحطَّ منهم ، فالشُّعوبيون :قومٌ متعصبون على العرب لا يرون لهم فضلاً على غيرهم من الأمم، إن لم يكونوا أقلَّ منهم شأنًا ومنزلةً ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي : محمد نبيه حجاب ، ص١ .

(١٧)الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى : ص : ١٢٨ .

(١٨) العصر العباسى الأول : عبدالعزيز الدورى ، ص ٦ .

(١٩) فى الشعر العباسى الرؤية والفن : الدكتور عز الدين إسماعيل ، ص٧٠ .

يظهر فيهم الاسلام ، وشعروا بأفضليتهم على غيرهم ، رغم أن هذا الشعور متى وجد فإنَّه يناقض المبادئ السامية التى يدعو إليها الدين الإسلاميّ ، لأنَّه مبنيٌّ على مفاهيم اجتماعيةٍ قد يكون محورها العصبيَّة الجنسيَّة " [٢٠] .

وكان لدخول هذه العناصر غير العربية حينئذٍ أثرٌ كبيرٌ فى الأحوال الاجتماعية وفى النتاج الحضارى الذى وافق العصر ، فقد امتزجت الحضارة العربية بغيرها من الحضارات الإنسانية ، وبخاصة الفارسية ، فكان أن وجدت حياةٌ جديدةٌ تتسم بالترف ، والثراء ، ومحاولة إعادة تشكيل النظم الاجتماعيَّة ، والسياسيَّة للدولة الإسلاميَّة على مثال النظم والقيم الساسانية التى كانت تمثل فى نظر هؤلاء الموالى ذروة الكمال للثقافة الانسانية[٢١] .

٤ – النقل والترجمة :

حيث عرف العصر العباسي حركاتٍ ثقافيةً وتياراتٍ فكريةً متباينةً بفضل التداخل بين الأمم ، وكان لنقل التراث اليونانيّ والفارسيّ والهنديّ ، وإقبال العرب على الثقافات المتنوعة أبعد الأثر في جعل العصر العباسي عصرًا ذهبيًّا في الحياة الفكريَّة ، فقد تركت الثقافات الدخيلة أثرًا عميقًا في علوم العرب وفلسفتهم ، هذا وقد انقسم عهد الترجمة في العهد العباسي إلى دورين رئيسين : أولهما يمتد من قيام الدولة العباسية ١٣٢ هـ إلى بداية عهد المأمون ١٩٨ هـ ، والآخر يبدأ بتوالي المأمون الحكم ويمتد طيلة عهده٢١٨ هـ ،

---

(٢٠) دولة بنى العباس : شاكر مصطفى ، ١ /٢٤ .

(٢١)دراسات فى حضارة الاسلام : ص٨٨ .

ففي عام ١٤٥ هـ أسس أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية مدينة بغداد، وجعلها عاصمة الدولة الإسلامية بدلاً من دمشق، فسرعان ما ازدهرت وطغى نورها الفكري على نور البصرة والكوفة، وكان للخليفة أبو جعفر المنصور شغف بالطب والهندسة والفلك والنجوم .

وهو أول من راسل ملك الروم طالباً منه كتب الحكمة ، فبعث إليه كتاب أقليدس وبعض الكتب الأخرى ، وجمع حوله صفوة من العلماء الذين يتقنون اللغات الأجنبية، وشجعهم على ترجمة الكتب العلمية المنتقاة، وفي سبيل ذلك أنشأ ديواناً للترجمة ، فنقل جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع للخليفة المنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانية .واهتم الخليفة هارون الرشيد بترجمة الكتب الأجنبية، ووسع ديوان الترجمة الذي أنشأه المنصور لنقل العلوم ، وطلب من البيزنطيين تسليمه المخطوطات اليونانية القديمة ، ومن أشهر الكتب التي ترجمت في عهد الرشيد كتاب بطليموس الذي معناه" الترتيب الكبير في علم الفلك " كما أمر الرشيد بتعريب الكتب التي وجدها في أنقرة وعمورية وعهد بها إلى يوحنا بن ماسويه كبير المترجمين في عصره .

وأنشأ المأمون في بغداد- بيت الحكمة -الذي كان يحوي المجمع العلمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة أقام فيها طائفة من المترجمين الذين أغدق عليهم الأرزاق من بيت المال ، وكذلك أرسل المأمون البعثات إلى بلاد الروم للحصول على الكتب، وحسب قول صاحب وقد كتب إلى ملك الروم يطلب منه إرسال كتب العلوم القديمة وغيرها المخزونة لديه، فأجابه ملك الروم بعد تردد، فأرسل

المأمون لذلك جماعة فأخذوا مما وجدوا وما اختاروه ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، ومايميز حركة الترجمة في عصر المأمون أن هذا الخليفة أحسن تنظيمها وجعلها مرجعاً ومنشطاً رسميين في الدولة، وأنفق من أجلها الأموال الطائلة (٢٢) .

٥- التقدم العلمي والثقافي :

وبفضل اعتناء الخلفاء واهتمامهم بالناحية الفكريَّة إلى جانب اعتنائهم بالدفاع عن حدود الخلافة العباسية، أصبحت بغداد مركز الحضارة الإسلامية اعتبارًا من بدايات القرن الثاني الهجري، وقد كان لتلك العوامل الاجتماعيَّة والثقافيَّة الجديدة الأثر الواضح في الأدب العباسي عامةً ، وليس من شك في أن هذا التشجيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلميةوالفكرية، إذ كان من يبزغ نجمه في الحلقات لا يلبث أن يستدعى إلى مقر الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء، فإذا العطايا تنهال عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً.

وقد اتسعت في ذلك الحين صنعة الوراقة، وهي تشبه في هذا العصر الطباعة والنشر، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم آتبهم ويذيعونها في الناس .وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات، وقد أقامت الدولة مكتبة ضخمة هي

---

(٢٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية : كلود كاهن ، ترجمة :بدر الدين القاسم ص١٠٥ وما بعدها ، وحضارة الإسلام وأثرها على الترقي العالمي: جلال مظهر ص ٢٤٤ -٢٤٣ ، و تطور الفكر العلمي عند المسلمين: محمد الصادق عفيفي ص٣٩ .

"دار الحكمة "عُنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة.

كما أقبل الأدباء على الثقافات الجديدة يكتسبون منها معطياتٍ عقليةً ، وقدرةٍ على التعليل والاستنباط وتوليد المعاني، والمقارنة والاستنتاج ، فالأدب العباسيُّ جاء أغنى مما سبقه، ويدلُّ على هذا الغنى ما نراه في شعر أبي نواس وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء، وما نراه في نثر ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان وسواهم .

ثم إن عمق الثقافة ساعد على عمق التجربة الإنسانية ، فجاء الأدب العباسي زاخرًا بالمعطيات الإنسانيَّة من حيث تصويره لجوهر الإنسان وما يتعاقب على النفس من حالات اليأس والأمل، والضعف والقوة، والحزم والفرح وغير ذلك ، كما رسم الأدب العباسي المشاكل العامة في الاجتماع والفكر والسياسة والأخلاق ، كما دونت التصانيف والكتب في شتى العلوم من علوم شرعية كعلوم الحديث والفقه وعلوم اللغة كالنحو والصرف والعروض إلى جانب علوم الطب والعمران والرياضيات والجغرافيا وغيرها من العلوم التى زخر بها العصر العباسي مما هيأ للنثر بيئة خصبة للنمو والازدهار وأسس لعقل عربي غني بالمعارف والعلوم والثقافة .

الفصل الأول

نصوص من الشعر العباسي

١ – قصيدة الربيع لأبي تمام :

رَقّت حَواشي الدّهرِ فهيَ تَمَرمَرُ   وَغَدا الثّرى في حَليِهِ يَتَكَسَّرُ
نَزَلَتْ مُقَدمَةٌ المَصِيفِ حَمِيدَةً   ويدُ الشّتاءِ جديدةٌلا تكفرُ
لولا الّذي غرسَ الشتاءُ بِكفهِ   لاَقَى المَصيفُ هَشَائِمًا لاتُثْمِرُ
كمْ ليلةٍ آسى البلادَ بِنفسهِ   فيها ويَومٍ وَبْلُهُ مُثْعَنْجِرُ
مَطَرٌ يَذُوبُ الصّحْوُ منه وبَعْدَه   صَحْوٌ يَكادُ مِنَ الغَضَارة يُمْطِرُ
غَيْثَانِ فالأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظَاهِرٌ   لكَ وجههُ والصحوُ غيثٌ مضمرٌ
وندىً إذا ادهنتْ بهِ لممُ الثّرى   خِلْتَ السّحابَ أتاهُ وهو مُعَذرُ
أربيعنا في تسعَ عشرةَ حجةً   حَقّا لَهِنّكَ لَلرّبيعُ الأَزْهَرُ
ما كانتِ الأيامُ تسلبُ بهجةً   لو أنّ حسنَ الرّوضِ كانَ يعمّرُ
أولا ترى الأشياءَ إنْ هيَ غيرتْ   سَمُجتْ وحُسْنُ الأرْضِ حِينَ تُغَيّرُ
يا صاحِبَيّ تَقَصّيا نَظَرَيْكُمَا   تريا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصورُ
تريا نهارًا مشمسًا قد شابهُ   زهرُ الربا فكأنما هو مقمرُ
دنيا معاشٌ للورى حتى إذا   جليَ الربيعُ فإنما هيَ منظرُ
أضحتْ تصوغُ بطونها لظهورها   نَوْرًا تكادُ له القلوبُ تُنَوّرُ
مِن كلّ زاهِرَةٍ تَرقْرَقُ بالنّدَى   فكأنّها عينٌ عليهِ تحدرُ
تَبْدُو وَيحجُبُها الجَمِيمُ كأنّها   عَذْرَاءُ تَبْدُو تارَةً وتَخَفَرُ

حتّـــى غَـــدَتْ وَهَـــدَاتُها ونِجَادُهـــا ... فِئتَـــيْنِ فـــي خِلَـــعِ الرَّبيـــعِ تَبَخْتَـــرُ
مُصْنَـــــفَرَّةٌ مُحْمَــــرَّةٌ فكأنّهـــــا ... عُصَـــبٌ تَـــيَمَّنُ فـــي الوَغَـــا وتَمَضَّـــرُ
مِـــنْ فَـــاقِعٍ غَـــضٍّ النبـــاتِ كأنّـــهُ ... دُرٌّ يُشَـــقَّقُ قَبْـــلُ ثُـــمَّ يُزَعْفَـــرُ
أو ســـاطِعٍ فـــي حمـــرةٍ فكـــأنَّ مـــا ... يـــدنو إليـــهِ مِـــنَ الهـــواءِ معصـــفرُ
صـــنعُ الـــذي لـــولا بـــدائعُ صـــنعهِ ... ماعَـــادَ أصْـــفَرَ، بَعْـــدَ إِذْ هُـــوَ أَخْضَـــرُ
خلـــقٌ أطـــلَّ مـــنَ الربيـــعِ كأنـــهُ ... خلـــقُ الإمـــامِ وهديـــهُ المتيسّـــرِ
فـــي الأرْضِ مِـــنْ عَـــدْلِ الإمـــام وجُـــودِه ... ومِـــنَ النّبـــاتِ الغـــض سُـــرُجٌ تَزْهَـــرُ
تُنْسَـــى الرِّيـــاضُ ومـــا يُـــرَوِّضُ فِعْلَـــه ... أبَـــدًا علـــى مَـــرِّ اللّيـــالي يُـــذْكَرُ

- **أبو تمام :**

ذكره صاحب الأغاني ، فقال : " أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، من نفس طيّىء صليبة ، مولده ومنشؤه منبج ، بقرية منها يقال لها جاسم ، شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني، غواص على ما يستصعب منها، ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب في المطابق، هو كالسابق إليه جميع الشعراء، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه، فإن له فضل الإكثار فيه ، والسلوك في جميع طرقه ، والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة، ورديئة رذلة جداً ".(٢٣)

وقد اختلف في مولده فقد جعله بعضهم سنة ١٧٢ هـ ، وجعله غيرهم سنة ١٨٨ هـ ، وجعله أكثر المؤرخين سنة ١٩٠ هـ ، وقال آخرون أن مولده

---

(٢٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق : إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس ، دار صادر – بيروت ، د.ت ، ٢٦٥/١٦ .

كان فى سنة ١٩٢ هـ ، لكن الراجح أنه ولد سنة ١٧٢ هـ ، " وذلك أنه مدح الحسن بن سهل فى قصيدة يذكر فيها أنه كان فى السادسة والعشرين من عمره :

سِتٌّ وَعِشرونَ تَدعوني فَأَتبَعُها إِلى المَشيبِ وَلَم تَظلِم وَلَم تَحُبِ[٢٤]

وليس فى القصيدة ما يدل على أنه مدح الحسن وهو وزير ، وإن كان الحسن قد تولى الوزارة سنة ٢٠٢ هـ ، وبذلك ترجح رواية من قال بأنه ولد سنة ١٧٢ هـ " [٢٥].

فإن لم يكن من العجب أن يختلف فى عام مولده ، فإنه من العجب العجاب أن يختلف حول سنة وفاته (٢٢٦ ،٢٢٨، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ هـ) ، " إلا أن الراجح أنه مات سنة ٢٣١هـ أى آخر خلافة الواثق ، لأن أكثر المؤرخين خصوها بالتقدمة على سواها ، ثم لأن الشاعر لم يمدح خليفة بعد الواثق ، ولو أدرك المتوكل لما توانى عن مدحه ، والواثق مات سنة ٢٣٢ هـ " . [٢٦]

ثم حمله والده إلى مصر وهو طفل فنشأ فيها ، حتى إذا ترعرع أخذ يسقي الماء في الجامع ، وكان يخدم حائكا ويعمل عنده ثم اختلف إلى مجالس الأدباء و أهل العلم ، فأخذ عنهم فكان ذكيا ، فطنا يحب الشعر ، فلم يزل يعاينه حتى برع به ، ونبه ذكره ، وكان مديدا ، أسمر اللون يتمتم إذا تكلم لحبسة في لسانه ، ولا يحسن الإنشاد ، فكان غلامه الفتح ، ينشد شعره عنه .

---

[٢٤] ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى : ١٠٩/١ .

[٢٥] أدباء العرب في الأعصر العباسية : بطرس البستانى ، دار مارون عبود ، ١٩٧٩ ، ص٩٣-٩٤

[٢٦] نفسه : ص٩٣.

وكان قوي الحافظة فقيل إنه حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقاطع والقصائد ، وكان فطنا، حاضر البديهة ، كريم الأخلاق ، كثير المروءة وعاش في بيئة رفيعة ، فلم يصحب غير الخلفاء والأمراء .

أوقف أبو تمام معظم شعره على المدح فلم يدع خليفة ولا أميرا عاصره إلا رحل إليه و مدحه واتصل به وتكسب منه ، ولكنه قلما تذلل في استجدائه بل تغلب عليه الأنفة والرصانة أكثر مدائحه فخمة جليلة ، ويمتاز مدحه من منطق واتساق الأفكار وحكم وأمثال سائرة ،مبثوثة في تضاعيف أبياته، و افتخر بعروبته ، وافتخر بقومه ، وذكر أجوادهم و فرسانهم ، وفيهم أمثال حاتم وزيد الخيل . و كان شديد الإعجاب بشعره، فافتخر به وفاخر الشعراء ، ونزل المشيب برأسه ، وهو في السابعة عشر من عمره ، فجعله موضوعا لفخره. لم يتنسك أبو تمام كما تنسك غيره من الشعراء، ولا عرف الزهد إلى نفسه سبيلا بل ظل يجني من الحياة أحلى ثمارها ويستنشق أطيب أزهارها ، لا يتورع من إثم يرتكبه ، و محرم لا يجتنبه ، فقد كان من طلاب اللذة ولكنه آثرها مستترة .

وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون – وإن جدوا – آثاره وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جيده نظيرا ولا شكلا ولولا أن الرواة قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره وأفرط معادوه في التسطير لرديئه والتنبيه على رذله ودنيئه لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه . (٢٧)

---

(٢٧)الأغاني : ٢٦٦/١٦.

و يعد أبو تمام أول شاعر عربي عني بالتأليف ، فقد جمع مختارات من أجمل قصائد التراث الشعري في كتاب سماه الحماسة باسم الباب الأول والأطول منه وفيه عشرة أبواب.

وبعد أن طاف أبو تمام وتنقل في بلاد الله مابين الشام وبغداد مصر وخراسان :

خَليفَةُ الخِضرِ مَن يَربَع عَلى وَطَنٍ ... في بَلدَةٍ فَظُهورُ العيسِ أَوطاني[٢٨]

بِالشامِ أَهلي وَبَغدادُ الهَوى وَأَنا ... بِالرَقَّتَينِ وَبِالفُسطاطِ إِخواني

وَما أَظُنُّ النَوى تَرضى بِما صَنَعَت ... حَتّى تُطَوِّحَ بي أَقصى خُراسانِ

ثم استقر به المقام في الموصل ؛ حيث استدعاه(الحسن بن وهب) والي الموصل والكاتب المشهور ليتولى بريد الموصل، فظل بها عامًا، حتى توفي بها في عام ٢٣١هـ .

وكان إمام الشعراء في عصره، حتى قيل فيه:

"ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهمًا بالشعر في حياة أبي تمام، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه "[٢٩].

---

[٢٨]ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي : ٣ /٣٠٨.

[٢٩] الأغاني : ١٦/ ٢٧٠ .

تحليل النص

الطبيعة جزءٌ لا يتجزأ من حياة الشاعر العربي القديم، "فإنَّ الأدب هو الأديب، هو الأديب في عقله ومخيلته، وشعوره وذوقه، وحوّاسه وفي مادة الطبيعة التي انصهرت في بوتقة نفسه"(٣٠). فالشاعر يتفاعل مع الطبيعة باستمرار، وهو في صراع مع ما يعترض سبيل عيشه وحوائجه منها ، ومع تقلبات الزمان وحوادث الدهر ، وبقي في تحدٍّ مستمر لتلك الصعوبات بكل ما أوتي من إمكانات وأدوات ولو بالكلمات، فلجأ إلى الشعر مرة واصفًا ومعبرًا وأخرى مندهشًا ومتدبرًا، فالشعر تعبير عن الكون بواسطة كلمات .

وقد عاج العربي على بيئته يتأمّل فيها ما يحيط به من مناظر ومظاهر محاولًا تبرير حدوثها طورًا ، وفهم نواميسها طورًا آخر، معبّرًا عن خلجات وجدانه، تجاه ما يحدث فيها وما انعكس على ذاته ، بمحاكاة شعرية فنية ، ومن هنا كان إدراك الشاعر العباسي أن علاقة الذات الشاعرة بموجودات الخارج " لم تبق قائمة على الاعتراف بوجود مسافة بينهما وبين تلك الموجودات ، أو بأنَّ لتلك الموجودات وجودًا خاصًا بها ، أو مستقلًا عنها ، بل ظلت تقوم على إلغاء المسافة بينها وبين موجودات الخارج من جهة ، وعلى نسف كل وجود خاص بتلك الموجودات – أو تفجيره – من جهة ثانية ؛ لتصبح موجودات الخارج – بهذا – موجودات من جنس ذاتها ، تسخرها كأدوات لتحقيق وجودها الممكن في التجربة (٣١).

---

(٣٠) تاريخ الأدب في المغرب العربي : حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م ، ص ١٢ .

(٣١) الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية : مرجع سابق ، ص٩٩ .

والعالمان متداخلان ومتكاملان ، متناغمان ومتجانسان ؛ لأن الذات الشاعرة – وقد خضعت لسلطان "هم الوجود" في "فكر الوجود"– ظلت تختار من موجودات "العالم المعيش" ما يستجيب لحاجتها في تحقيق ذلك الهم ، أو ما يصلح أن يكون أداة حاسمة في تحقيق وجودها في ذلك الفكر[٣٢]، وهو ما صنعه أبو تمام في مديحه الخليفة وبيان أثر عطائه عليه في قوله [٣٣]:(كامل)

فقد صنع أبوتمام تلبسًا مزدوجًا في الأبيات ، فأشار إلى ممدوحه على أنه الربيع الذي حل على الكون فكساه بهجة ونضارة ، وتلبست ذاته صورة الأرض التي تأثرة بصنيع الربيع (الممدوح) ، فكأنَّ قدوم الربيع شبيه بقدوم الممدوح ، إنَّ قدوم الربيع محمود وصنيع الشتاء مشكور تواصل بين فصلين منسجمين ولعل الشاعر في تسمية الربيع بغير اسمه تعبير عن توحد الفصول وتواصلها وانصهار عناصر الطبيعة في وحدة الوجود ، ثم يصور الندى بكرياته اللؤلؤية طيبًا سقط من غدائر السحاب وشعره المسترسل على لمم الثري ولحاه من العشب والأشجار بوصف الربيع وما يتبعه من مطر وخضرة ، حيث صوَّر الشاعر الأرض في الصباح الباكر وتتبَّع صورة الندى الذي يسقط في الليل على نبات الأرض ،وإذا رأينا هذه القطرات بالنهار حسبناها قد مرَّ عليها السحاب وترد عليها غدائر صورة دقيقة لأثر الخصوبة في الأرض .

وعند اكتمال العلاقة بين الزمن والطبيعة وهنا فقط يصرح الشاعر بكلمة ربيع بعد أن سماه كناية فتصبح اللحظة ناصعة ، ويكرر ذكر كلمة ربيع لأنه قبل هذا التاريخ لم يأت ربيع مثله في كثرة أمطاره وخيراته ، فالممدوح هو الربيع

---

(٣٢)الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية : سابق ، ص١٠٤ .
(٣٣)ديوان أبي تمام :سابق ، ١٩١/٢

ازدهرت الحياة في عهده وكأن الشاعر يجمد حركة الزمن في الطبيعة والزمن الطبيعي يصبح زمنًا تاريخيًّا ، ثم تسكن الحركة بالمقابل إلى عنفوانها سابقًا وبعد حرارة الاحتفاء بجمال الربيع فالشاعر يقرر أنَّ التحول الذي أخرج الطبيعة إلى وجودها الجديد هو من صنع خالقٍ مبدعٍ هو الذي يحول الأخضر إلى أصفر ؛ من الجفاف إلى الخصوبة ، فالتحول دليلٌ على القدرة وهو تحولٌ لا من شيءٍ إلى شيءٍ بل تحولٌ في الشيء ذاته ، لقد تلمَّس الشاعر صنع الخالق في عملية الولادة التى تخضع لها الطبيعة ، فأبو تمام شاعر مرهف الحواس" إنسان له حالته المميزة ، ولكنه فى صدق مشاعره يلتقى مع قطاع ضخم من البشر يشاركهم الإحساس والانفعال"(٣٤).

(٣٤) مقدمة فى النقد الأدبى: ت،س، إليوت ، ترجمة : لطيفة الزيات ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ م ، ص١٦٧.

٢- قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم [٣٥] :

السَّيفُ أَصدَقُ أَنبَاءً مِنَ الكُتُبِ   فِي حدهِ الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعبِ

بيضُ الصَّفائحِ لاَسودُ الصَّحائفِ في   مُتُونِهنَّ جلاءُ الشَّك والرِيَبِ

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْماحِ لاَمِعَةً   بيْنَ الخَمِيسيْنِ لا في السّبْعةِ الشهُبِ

أَيْنَ الروايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا   صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَذِبِ

تخرُّصاً وأحاديثاً ملفّقةً   لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذا عُدَّتْ ولاغَرَبِ

عجائباً زعموا الأَيَّامَ مُجْفلةً   عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأَصفَارِ أَوْ رَجَبِ

وخَوَّفُوا الناسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ   إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَّنبِ

وصيَّروا الأبرجَ العُلْيا مُرتَّبةً   مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غيْرَ مُنْقَلِبِ

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة   ما دار في فلك منها وفي قُطُبِ

لو بيَّنت قطّ أمراً قبل موقعه   لم تُخْفِ ماحلّ بالأوثان والصلُبِ

فَتْحُ الفُتوحِ تَعالَى أَنْ يُحيطَ بِهِ   نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لهُ   وتبرزُ الأرْضُ في أثوابها القُشُبِ

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُورِيَّةَ انْصَرَفَتْ   منكَ المُنى حُفَّلاً معسولةَ الحلبِ

أبقيْتَ جدَّ بني الإسلامِ في صعدٍ   والمُشْرِكينَ ودَارَ الشرْكِ في صَبَبِ

أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَن تُفْتَدى جَعَلُوا   فداءها كلَّ أمٍّ منهمُ وأبِ

---

[٣٥] ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى : ١/٤٠ .

وبرزةِ الوجهِ قد أعيتْ رياضتُها — كِسْرَى وصدّتْ صُدُوداً عنْ أبي كربِ

بِكْرٌ فما افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ — ولا ترقَّتْ إليها همَّةُ النُّوبِ

مِنْ عهْدِ إسْكَنْدَرٍ أوْ قَبلَ ذَلِكَ قَدْ — شابتْ نواصي اللَّيالي وهيَ لمْ تشبِ

حتَّى إذا مَخَّضَ اللهُ السنين لَهَا — مَخْضَ البخِيلَةِ كانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

أتَتهُمُ الكُربةُ السّوداءُ سادرةً — منها وكان اسمها فرّاجةَ الكُربِ

جرى لها الفالُ برحاً يومَ أنقرةٍ — إذْ غودرتْ وحشةَ الساحاتِ والرّحبِ

لمَّا رَأتْ أُخْتَها بِالأمْسِ قَدْ خَرِبَتْ — كَانَ الخَرَابُ لَهَا أعْدَى من الجَرَبِ

كمْ بينَ حيطانها من فارسٍ بطلٍ — قاني الذّوائب من آني دمٍ سربِ

بسُنَّةِ السّيفِ والخطيِّ منْ دمه — لاسُنَّةِ الدين وَالإسْلاَمِ مُخْتَضِبِ

لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها — للنّارِ يوماً ذليلَ الصّخرِ والخشبِ

غادرتَ فيها بهيمَ اللَّيلِ وهوَ ضُحىً — يَشُلُّهُ وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللّهَبِ

حتَّى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رغبتْ — عنْ لَوْنِهَا وكَأنَّ الشّمسَ لَم تَغِبِ

ضوءٌ منَ النَّارِ والظَّلماءُ عاكفةٌ — وظُلمةٌ منَ دخان في ضُحىً شحبِ

فالشّمسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذا وقدْ أفَلَتْ — والشّمسُ واجبةٌ منْ ذا ولمْ تجبِ

تصرَّحَ الدَّهرُ تصريحَ الغمامِ لها — عنْ يومِ هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُبِ

لم تَطْلُعِ الشّمسُ فيهِ يَومَ ذاكَ على — بانٍ بأهلٍ وَلَم تَغْرُبْ على عَزَبِ

ما ربعُ ميَّةَ معموراً يطيفُ بهِ — غَيْلاَنُ أبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ

ولا الخُدودُ وقدْ أُدمينَ منْ خجَلٍ ... أشهى إلى ناظِري منْ خدها التَّرِبِ

سَماجَةً غنِيَتْ مِنّا العُيونُ بِها ... عنْ كلِّ حُسْنٍ بدا أو منظرٍ عجبِ

وحُسْنُ مُنقَلَبٍ تبقى عَواقِبُهُ ... جاءتْ بشاشتهُ منْ سوءِ منقلبِ

لوْ يعلمُ الكفرُ كمْ منْ أعصرٍ كمنتْ ... لَهُ العَواقِبُ بَينَ السُّمْرِ والقُضُبِ

تَدبيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ ... للهِ مرتقبٍ في اللهِ مُرتغبِ

ومُطعَمِ النَّصرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ ... يوماً ولاَ حُجبتْ عنْ روحِ محتجِبِ

لَمْ يَغْزُ قَوماً، ولَمْ يَنْهَدْ إلَى بَلَدٍ ... إلاّ تقدّمهُ جيشٌ منَ الرّعبِ

لوْ لمْ يقدْ جحفلاً، يومَ الوغى ، لغدا ... منْ نفسهِ، وحدها، في جحفلٍ لجبِ

رمى بكَ اللهُ بُرْجَيْها فهدَّمها ... ولوْ رمى بكَ غيرُ اللهِ لمْ يصبِ

مِنْ بَعْدِ ما أَشَّبُوها واثقينَ بِهَا ... واللهُ مفتاحُ بابِ المعقلِ الأشبِ

وقالَ ذُو أَمْرِهِمْ لا مَرْتَعٌ صَدَدٌ ... للسارحينَ وليسَ الوردُ منْ كثبِ

أمانياً سلبتْهمْ نجحَ هاجسِها ... ظُبَى السيوفِ وأطرافُ القنا السُّلُبِ

إنَّ الحمامينِ منْ بيضٍ ومنْ سُمُرٍ ... دَلْوَا الحياتين مِن مَاءٍ ومن عُشُبِ

لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ ... كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

عداكَ حرُّ الثغورِ المستضامةِ عنْ ... بردِ الثُّغورِ وعنْ سلسالها الحصبِ

أجبتهُ مُعلناً بالسَّيفِ مُنصَلتاً ... وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ

حتّى تَرَكْتَ عمودَ الشرْكِ مُنْعَفِراً ... ولم تُعرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ

لمّـا رأى الحـربَ رأي العـينِ تُـوفلِسٌ والحَـرْبُ مَشْـتَقَّةُ المَعْنَـى مِـنَ الحَـرَبِ
غَـدَا يُصَـرِّفُ بِـالأموالِ جِرْيَتَهـا فَعَـزَّهُ البَحْـرُ ذُو التَّيـارِ والحَـدَبِ
هَيْهَـاتَ! زُعْزِعَـتِ الأَرْضُ الوَقُـورُ بِـهِ عـن غـزْوِ مُحْتَسِـبٍ لا غـزْوِ مُكتسـبِ
لـمْ يُنفـق الـذهبَ المُرْبـي بكثرتـهِ علـى الحصـى وبـهِ فقْـرٌ إلـى الـذَّهبِ
إنَّ الأُسُـودَ أُسـودَ الغيـلِ همَّتُهـا يـوم الكريهـةِ فـي المسلوب لا السَّلَبِ
وَلَّـى ، وَقَـدْ أَلجَـمَ الخطـيُّ مَنْطِقَـهُ بِسَـكْتَةٍ تَحْتَهـا الأَحْشَـاءُ فـي صَـخَبِ
أَحْذَى قَرَابينَـه صَـرْفَ الـرَّدَى ومَضَـى يَحْتَـثُّ أَنْجَـى مَطَايـاهُ مِـن الهَـرَبِ
مُـوكّلاً بيفَـاعِ الأرضِ يُشْـرِفُهُ مِـنْ خِفّـةِ الخَـوْفِ لا مِنْ خِفَّـةِ الطـرَبِ
إنْ يَعْـدُ مِـنْ حَرهـا عَـدْوَ الظّلِيم، فَقَـدْ أوسـعتَ جاحمهـا مِـنْ كثـرةِ الحطـبِ
تِسْـعُونَ ألفـاً كآسـادِ الشَّـرَى نَضِـجَتْ جُلُـودُهُمْ قَبْـلَ نُضْـجِ التـينِ والعِنَـبِ
يـا رُبَّ حوبـاءَ لمّـا اجتـثَّ دابـرهمْ طابَـتْ ولَـوْ ضُـمخَتْ بالمِسْكِ لـم تَطِـبِ
ومُغْضَـبٍ رَجَعَـتْ بِـيضُ السُّـيُوفِ بِـهِ حـيَّ الرِّضـا مـنْ رداهـمْ ميِّـتَ الغضـبِ
والحَـرْبُ قائمَـةٌ فـي مـأْزِقٍ لَجِـجٍ تجثُـو القيـامُ بـهِ صُـغراً علـى الرُّكَـبِ
كـمْ نيـلَ تحـتَ سـناها مـن سنا قمـرٍ وتَحْـتَ عارِضِـها مِـنْ عَـارِضٍ شَـنِبِ
كـمْ كـانَ فـي قطـعِ أسبابِ الرِّقـابِ بهـا إلـى المخـدَّرةِ العـذراءِ مـنْ سـببِ
كَـمْ أَحْـرَزَتْ قُضُـبُ الهنْـدِي مُصْـلَتَةً تهتـزُّ مـنْ قُضُـبٍ تهتـزُّ فـي كُثُـبِ
بـيضٌ إذا انتُضِـيتْ مـن حُجبهـا رجعـتْ أحـقُّ بـالبيض أترابـاً مـنَ الحُجُـبِ

خَلِيفَــةَ اللَّهِ جــازَى اللَّهُ سَــعْيَكَ عَــنْ جُرْثُومَــةِ الــدِينِ والإِسْــلاَمِ والحَسَــبِ

بصُــرْتَ بالرَّاحــةِ الكُبــرى فلــمْ تَرهــا تُنــالُ إلاَّ علــى جســرٍ مــنَ التَّعــبِ

إن كــان بــينَ صُــرُوفِ الــدَّهرِ مــن رحــمٍ موصــولةٍ أوْ ذمــامٍ غيــرِ مُنقضــبِ

فبَــيْنَ أيّامِــكَ اللاَّتــي نُصِــرْتَ بِهَــا وبَــيْنَ أيّــامِ بَــدْر أَقْــرَبُ النَّسَــبِ

أَبْقَــتْ بَنــي الأصْــفَرالمِمْرَاضِ كاسِــمِهِمُ صُــفْرَ الوجُــوهِ وجِلْــتْ أَوْجُــهَ العَــرَبِ

تحليل النص

يمكننا تقسيم النص إلى مجموعة من اللوحات،إذ يتكون النص من سبع لوحات :

- اللوحــة الأولــى : تضــم الأبيــات مــن (١) إلــى (١٠) ، وتمثــل مقدمــة القصيدة ، وفيها يفند أبوتمام أقوال المنجمين وآراءهم :

يبدأ الشاعر النص مستخدما الجناس والطباق معا صانعا مفارقة جميلة ، حيث يقابل بين شفرات السيوف اللامعة (بيض الصفائح) التى تنير وتوضح ما هو غير مؤكد وبين الشك الأسود لحبر صفحات كتب المنجمين(سود الصحائف) ، وهكذا فإن نعت السيوف "البيض " يمتد مجازيا ليمثل النور والوضوح والحق ، فى حين يمتد نعت الصحائف بـ " السود " ليمثل الظلام والشك والباطل ، ومن ثم يصل الشاعر الطباق بتورية فى كلمة " متن " : وهو الجانب العريض من السيف أو النص من الكتاب ، إن العلم ليقوم على

الفعل القوى كأنه فى شهب / أسنة الرماح تلمع فى ميدان الحرب ، ولا يقوم على اللمعان المجرد للكواكب السبعة فى إشارة منه إلى التنجيم .

إن الرعب الذى أثارته تنبؤات المنجمين اشتد حتى هربت الأيام نفسها ملتجئة الى شهري صفر ورجب اللذين – حسب عادات الجاهلية – يحرم فيهما القتال ، فقد كان ظهور الكوكب الغربي ذي الذنب فى هذه السنة بالنسبة للمنجمين علامة على كارثة توشك أن تحدث ، وقد أثار المنجمون الرعب فى قلوب العامة بسبب ذلك ، ويشير أبو تمام إلى بطلان تأويل المنجمين من خلال الطباق بين الدهماء الـ " مظلمة " ولمعان ذيل الكوكب الغربي ، كما نرى المفارقة فى وصف أبى تمام المنجمين بالسلبية فى مقابل إيجابية الممدوح ؛ " فهم يستسلمون فى تنبؤاتهم إلى البروج السماوية التى لا تدرى شيئا عن أحداث الدنيا أو حتى عن دورانها فى السماء ، ولقد أثبت التاريخ ، فى النهاية ، بطلان تنبؤات المنجمين ، ولو كانت النجوم قادرة على كشف المستقبل ، لأخبرت صدقا بهذا الفتح العظيم الذى فاق كل الفتوحات " [٣٦].

– اللوحة الثانية : تضم الأبيات من (١١) إلى (٢٤) ، وفيها يشير أبوتمام إلى أهمية هذا الفتح العظيم وأهمية عمورية :

---

[٣٦] الشعر والشعرية فى العصر العباسي : سوزان بينكنى ، ترجمة : حسن البنا عزالدين ، المركز القومى للترجمة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م ، ص٢٩٦

فبعد أن انتهى الطائى من الرد على أحاديث المنجمين يبدأ فى وصف فتح عمورية ، الذى هو أعظم من أن يحيط به شعر أو نثر ، ويتحدث عن تحقيق آمال المسلمين من خلال صورة كلاسيكية عن الخصوبة والوفرةمن خلال صورة الناقة الحلوب التى يمتزج لبنها بالعسل ، ثم يعود مرة أخرى إلى صنع المفارقة حين يجمع بين مصطلحات المنجمين فى طباق : صعد (طلوع) ، وصبب (انحدار) مع تسمية الفريقين ، بنى الإسلام والمشركين .

وانظر إلى المفارقة فى الأبيات ، حيث " تستوعب عمورية كل الصفات الأنثوية التى ترتبط بصورة الناقة المرتبطة بالخصوبة ، فتوصف عمورية بأنها أم للروم نظرا لأهميتها عندهم ، كما توصف المدينة بأنها عذراء ، ويستخدم الشاعر معنى " الصد " لوصف رد فعل المدينة الممتنعة / الناقة ، ويمضى الشاعر فى وصف المدينة قبل فتحها بأنها شابة عذراء ،فإذا تحدث عنها مع اقتراب تدميرها جاء الإحساس بالفقد والخراب ، ومن ثم فإن الزمن الألهى معبر عنه من خلال صورة أنثوية من نوع أخر فالله قد قضى بموعد فتح المدينة وذلك من خلال صورة مخض السنين والصورة هنا هى مخض المرأة المجتهدة (البخيلة الحليب) كي تستخرج الزبد من كل قطرة منه ، وهكذا فإن مدينة أنقرة أخت مدينة عمورية تشخص وتوصف من خلال معجم الأطلال تحديدا ، فالشاعر يشبه خراب أنقرة – أخت عمورية – من قبلها بالمرض المعدى الذى انتقلت عدواه فى سرعة إلى عمورية ؛ فأصابها ما

أصاب أختها من قبل من خراب ودمار ، ثم تأتى المفارقة ، حين تحل المطابقة بين السيف الغازي والمدينة العذراء من خلال صورة الدم المتمثل فى دماء رجال عمورية فى المعركة من ناحية ، ودماء هذه العذراء (عمورية) من ناحية أخرى، فإن كلا من هذين الشكلين لسفك الدماء له القيمة نفسها من منظور التضحية ، فكلاهما يعمل على بث الحيوية فى الأمة ، وهذان الشكلان من ناحية متطابقان ، فسفك دماء رجال عمورية على يد جيوش المسلمين معادل للاغتصاب المجازى للمدينة .

ومن ناحية أخرى فإن الاغتصاب المجازى للمدينة المشخصة عائد الى الخطف والاغتصاب الحقيقي لنسائها ، كما تظهر المفارقة فى الأبيات من خلال تصوير أعالي رؤوس رجال عمورية تسيل دما حيث يصف الشاعر رجال عمورية بأنهم خضبوا رؤوسهم بما سنه السيف وحكم به ، ومن ثم ماتوا ؛ على عكس من جيوش المسلمين الذين خضبوا رؤوسهم بالحناء حسب سنة الإسلام " [٣٧] .

- اللوحة الثالثة : تضم الأبيات من (٢٥)إلى(٣٦)،وفيها يشير أبوتمام إلى صور عمورية المختلفة بعد قيام الخليفة المعتصم بفتحها :

يبدأ الشاعر البيتين (٢٥) و(٢٦) بالفعلين " تركت " و " غادرت "

---

[٣٧]الشعر والشعرية فى العصر العباسي ، ص٢٩٨-٢٩٩

مخاطبا الخليفة المعتصم بما يوحى بفراق القبيلة والتخلي عن منازلها ليعمرها الخراب والوحشة ، إلا أن الخليفة يبو وكأنه يحقق من خلال الغزو والإحراق والسلب ما يحققه مرور الزمن ، أو الدهر ، من خلال الرياح والإمطار ودورة الفصول الموسمية .

وتأتى المفارقة فى الأبيات حيث يبدو التقدم الطبيعي للحياة وقد توقف ؛ وسواد الليل وقد شحب وكأن الشمس قد أوقفت دورتها اليومية ولم تغب عن كبد السماء ، كما ينقلب حال الليل والنهار من خلال الدخان والنار ، حيث ضوء النار يصير الليل نهارا ، وظلمه الدخان تصير الضحى ليلا شاحبا . ثم يجمع الشاعر بين رعب أهل عمورية واضطرابهم من جهة وبين روع المسلمين الغازين وإشفاقهم من جهة أخرى .

ثم تعاود المفارقة الظهور مرة أخرى ، فالشاعر يتكئ على الطباق ليقابل بين الأمرين ، بحيث " يعود الجنود المسلمون من ميدان الحرب طاهرين ، مما قاموا به من جهاد ضد الكفر ، وفى الوقت نفسه يعودون جنبا " لأنهم أخذوا السبي فوطئوه فاحتاجوا إلى الغسل ، ثم يستخدم الشاعر طباقا مزدوجا لتقرير أن الشمس لم تطلع على بان بأهله (متزوج) فى عمورية ، أى قتل كل سكانها الذكور ؛ ولم يبق فى الجنود المسلمين " عزب " لأنهم وطئوا نساء

السبي ، فأصبحوا فى حكم المتزوجين" [٣٨]، وينتقل أبو تمام إلى مفارقة أخرى وذلك بعد أن اكتمل الفتح الدموي والعنيف وتدمير المدينة ، فالمدينة المدمرة والمهجورة تكتسب الآن جمالا حزينا لا يزول ، فمثله مثل جمالا أطلال المحبوبة الدراسة ، أو تكتسب ما يفوق هذا الجمال .

وتستمر المفارقة فمشهد عقيدة الكفر مدحورة ومنظر العدو مهزوما ، أشهى الى المنتصرين من الخدود التى اصطبغت من حمرة الخجل ، فكما تقع عين الشاعر / المحب على علامات وآثار للسعادة الآفلة فى الأطلال الموحشة لمنازل محبوبته ، كذلك ترى عيون المسلمين المنتصرين جمالا ومناظر عجيبة لقدرة الله ولنصر الإسلام فى قبح المدينة المخربة وبقايها ؛ كما يأتى بمفارقة أخرى حين يقرر الشاعر فى اصطلاح المنجمين " انقلابا " أى انتصارا للنور على الظلام فى هذه الحالة وينطوي حسن حظ المسلمين على سوء حظ ملازم للكفار . وهكذا فالشاعر ، بعد أن عبر عن رؤيته / روايته لسقوط عمورية بالتصريح بأن هزيمة الكفر كانت أمرا مقضيا لا مفر منه ، كما لو كانت هذه الهزيمة قابعة فى مكمن انتظار للحظة المناسبة كي تظهر للعيان .

- اللوحة الرابعة: تضم الأبيات من (٣٧) إلى (٤٩) ، وفيها يمدح أبوتمام الخليفة المعتصم ويشيد بدوره فى الفتح :

---

[٣٨] الشعر والشعرية فى العصر العباسي : ص٣٠٢

يظهر اسم الخليفة ويلعب الشاعر ، مستغلا حسن التقسيم الواضح فى البيت ، على اشتقاق الاسم ويدعم ذلك من خلال التشطير ، " والذي نجح فيه أبو تمام من خلال تكرار اسم الله فى بيان أن طبيعة العلاقة بين الخليف والدين مقررة بأحكام : فمن أجل النصر ، يعتمد الخليفة على الله ، على مرسوم إلهي ووحي إلهي : إنه لا يغزو باسمه الخاص ، بل كي ينتقم لله وللإسلام ؛ ومناقبه تقربه من الله وسوف تدخله الجنة ؛ فمراعاته الله فيما يفعل ورغبته فيما يدينه من الله ليس سعيا إلى مكاسب دينوية ومادية بل سعيا فى سبيل الله تعالى ، لقد ألف الخليفة النصر ولازمه حتى أن الرعب الذى يبثه فى قلوب أعدائه يسبقه إليهم مثل جيش مجلجل صاخب ، فنفس الخليفة تتميز بثبات وجلد يساوى ما لدى جيش كامل ضخم ، ومع ذلك فإن قوة الخليفة مستمدة من قوة الله ، فالله الآن هو الفاعل النهائي ؛ والخليفة سلاحه وهذا ما تدعمه البنية التركيبية الجدلية لبقية فمهما كان السهم مفوقا ، فإن الرامي هو الذى يخطئ ويصيب ؛ حيث يعلن الشاعر أن الرامي لم يكن إلا الله ، ومهما تكن جهود العدو فى حماية المدينة ، وقد أحاطوها بالجند والرماح حتى صاروا كالشجر المتلف حولها ، فأن الله مفتاح كل معقل ، فقد كان قائد الروم يعبر عن ثقته فى أن جنود المسلمين لا يجدون مرتعا ولا مسرحا لدوابهم ولا ماء بالقرب منهم يردونه ، فإذا ضاق بهم الأمر انصرفوا عن المدينة ولم

يطيقوا حصارها " [٣٩].

ويتحول هذا الماء وما يرعاه القوم من كلأ الأرض تحولا مجازيا إلى التعبير عن جدل حول الأخذ بالثأر ، إن نقص العناصر الطبيعية لاستمرار الحياة يعوض عنه من خلال الأسلحة ، فلا تنال لذة الأكل والشرب إلا بالرماح والسيوف فعندما سمع الخليفة استغاثة السبية المسلمة فى زبطرة وقد أهانها الآسر حرم على نفسه النساء والخمر حتى يثأر لكرامة الإسلام ، وتحريم المعتصم على نفسه الخمر والنساء ليس سوى النذر الطقوسى المعروف والذي يشير إلى الدخول فى مرحلة التضحية من هذا الطقس .

فالتضمين للحرارة والعنف فى الحرب يقابله برد ثغور الحسان وعبثهن فى البلاط ، ثم ينهى أبو تمام المديح المعهود بالجمع بين صورة مدنية عمورية بوصفها عمود أهل الشرك ، أى قاعدتهم ، فالخليفة لم يعمد إلى ما صغر من الأمور : أى لم يقتنع بالقرى الصغيرة وسبى من فيها ، لكنه يقصد مباشرة إلى قصبة أهل الشرك ، تاركا إياها وقد غطاها التراب .

اللوحة الخامسة : تضم الأبيات من (٥٠) إلى (٥٨) ، وفيها هجاء أبى تمام لتوفليس :

يستخدم أبو تمام فى الأبيات الأسلوب نفسه الذى استخدمه فى القصيدة

---

[٣٩] الشعر والشعرية فى العصر العباسي : ص٣٠٤-٣٠٥

أى مقابلة هجاء قائد العدو بمدح قائد المسلمين ، إن التقابل الأساسي هو بين الحوافز الدنيوية التى ينطلق منها توفلس وبين الوزاع الدينى لدى المعتصم إلى الأخذ بالثأر / تحقيق العدل ، إن ردة فعل توفلس الأولى ، وهو يرى المعتصم وجيشه يتقدمون مثل لج البحر ، أن يربط فى ذهنه بين " الحرب " (بمعنى القتال) و" الحرب " (بمعنى السلب) والخوف على ذهاب ماله . ورغبة فى تخفيض خسائره ما أمكن ، يحاول أن يبذل أموالا للمعتصم حتى يرجع عنه ، بمعنى الرشوة ، لكن جيوش المسلمين مثلها مثل ماء فيضان متدفق ، لا يمكن صده ، تغلبه فى البيت ، وتتغير الاستعارة من فيضان البحر الهائج الى عقاب طبيعي ساحق الزلزال .

وهنا يشير الوصف إشارة دقيقة إلى احتساب الأخذ بالثأر للإسلام وخصوصا فى ارتباطه بزلزلة الأرض ، مستدعيا رؤية يوم الحساب ، " إن المحتسب للأجر لدى الله (المعتصم) يوضع فى مقابل المكتسب للمال فى الدنيا (توفلس) ، ويعلن الشاعر فى البيت أن أسد الحرب الحقيقيين –على العكس من توفلس الجشع – يتطلعون إلى المسلوبين بمعنى قتل الأعداء وسبى نسائه مدافعين ومنتقمين للإسلام ضد الكفر ، ولا يتطلعون إلى السلب وهكذا نجد توفلس فى البيت وقد ألجمه صوت المعركة فلم يعد قادرا على الكلام واضطربت أحشاؤه خوفا مما يجد ، وهكذا يهرب (توفلس) من ساحة الحرب على عكس المعتصم الذى يتقدم ويهجم بالسيف فى البيت ، إن جشع

توفلس إلى الذهب بوازنه " كرمه " فى توزيع الموت على أقاربه فى ميدان الحرب بدلا من المخاطرة بحياته التى نجا بها ومطاياه فى ، فيهرب توفلس ولأن الخوف مطيبته تراه يقصد أعالي الأرض الآمنة حيث يطل على ميدان الحرب ، وقد نال من قلبه طيش الخوف ممن يمكن أن يتبعه من المحاربين المسلمين " [٤٠].

ينهى أبو تمام هجاء توفلس بصورة شعرية جاهلية عن الظليم (ذكر النعامة) المعروف بخوفه من النار ونفوره وسرعته فى الجري ونيران الحرب ؛ فالمعتصم قد أسعر نار الحرب ، وأما توفلس فمثله مثل الظليم قد نجا بنفسه .

اللوحة السادسة : تضم الأبيات من (٥٩) إلى (٦٦) ، وفيها هجاء أبى تمام لجيش الروم ووصف القضاء على جيوش الكفار وسبى نسائهم:

وردا على قول المنجمين بأن مدينتهم لا يمكن أن تفتح قبل نضج العنب والتين ؛ فإن الشاعر يصف القضاء على جنود الروم الذين قد " نضجت أعمارهم " وحان " قطافها " للارتباط المجازى بين العدو مقتولا وبين الفاكهة ناضجة معنى البيتان التاليان ، فيستخدم بالمثل الصورة التقليدية للأخذ بالثأر ليصف جدلية المدنس / المتطهر ، أى المقابلة بين الدم المطول وبين الدم المأخوذ بثارة : فالنفس المهمومة والحزينة لعد الأخذ بالثأر تطيب وتسر إذا

---

[٤٠] الشعر والشعرية فى العصر العباسي : ص٣٠٨

ثأرت من عدوها ؛ وذلك فى ثنائية متوازنة الأطراف للحياة والموت ، الرضا والغضب، والشاعر يعطينا هنا عبارة أكثر تحديدا وإيجازا للأخذ بالثأر : فمن خلال القضاء على العدو ، تعود الى الجندي المسلم حياته ويموت غضبه ، ثم تقوم الحرب منتصرة فى حين يجثو الأعداء على الركب لثقل ما حملوه من أمر الحرب .

وقد جمع الطائى فى مفارقة أخرى بين قتل الرجال واغتصاب النساء ، والصلة بين الأمرين مؤكدة بصورة واضحة ، " فالسبيل إلى سبى نساء العدو لا يكون إلا من خلال قتل رجاله ، ويلاحظ فى هذا البيت تكرار ذكر " كم " الخبرية ، وهو تكرار يكثف الصورة ، ويصل بها الى زروتها ، وهذا الإحكام لصورة المديح وصورة النسيب يعود مرة أخرى ؛ حتى تندمج المتعارضات بعضها فى البعض الأخر ، فالشاعر يجمع بين صورة المديح حيث السيوف مسلولة من أغمارها وبين أكثر صورة النسيب تقليدية عن العذرية حيث العذراء البيضاء البشرة تحيط بها أندادها " "[٤١].

اللوحة السابعة : تضم الأبيات من (٦٧) إلى (٧١) ، وفيها الدعاء للمعتصم وتعظيم فتح عمورية :

يلحق الشاعر دعاء موجزا يختم به القصيدة ، فيدعو الله أن يكافئ الخليفة لجهاده فى سبيل " جرثومة " الدين والإسلام ، وهكذا يعبر عن المبدأ الاسلامى الذى يقوم على أن الإخلاص للإسلام والرعية المسلمين يجب

---

[٤١] الشعر والشعرية فى العصر العباسي : ص٣١١

العصبية القبلية الجاهلية ،ومن خلال إنكار الذات والتضحية بالنفس ينال الخليفة راحة البال ، " ثم يثبت صلة النسب بين فتح عمورية ونصر النبي فى غزوة بدر ، وعن طريق هذا النسب المجازى بين موقعتي عمورية وبدر يسمح الشاعر لعمورية أن ترتقي الى أعلى نموذج أصلى للانتصارات الإسلامية ، وأبو تمام يأتى بمفارقة أخيرة فى القصيدة عندما يعلن أن المعتصم قد ترك وجوه بني الأصفر (الروم) وقد استنزفت الهزيمة دماءهم حتى مرضوا ، أما وجوه العرب فهي تشع بألق النصر " [٤٢].

---

[٤٢] نفسه : ص٣١٣

٣- سينية البحتري " صنت نفسي "(٤٣) :

صُنْتُ نَفسِي عَمّا يُدَنِّس نفسي،   وَتَرَفَّعتُ عن جَدا كلِّ جِبْسِ

وَتَماسَكْتُ حَينُ زَعزَعني الدَّهْـ   رُ التماساً منهُ لتَعسِي، وَنُكسي

بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيشِ عندِي،   طَفّفَتْها الأيّامُ تَطفيفَ بَخْسِ

وَبَعيدٌ مَا بَينَ وَارِدِ رِفْهٍ،   عَلَلٍ شُرْبُهُ، وَوَارِدِ خِمْسِ

وَكَأنّ الزّمَانَ أصْبَحَ مَحْمُو   لاً هَوَاهُ مَعَ الأخَسّ الأخَسّ

وَاشْتَرَائي العِرَاقَ خِطّةَ غَبْنٍ،   بَعدَ بَيعي الشّآمَ بَيعةَ وَكْسِ

لا تَرُزْني مُزَاوِلاً لاخْتبَارِي،   بعد هذِي البَلْوَى، فتُنكرَ مَسّي

وَقَديماً عَهِدْتَني ذا هَنَاتٍ،   آبياتٍ، على الدّنياتِ، شُمْسِ

وَلَقَدْ رَابَني نُبُوُّ ابنِ عَمّي،   بَعد لينٍ من جانِبَيهِ، وأُنْسِ

وإذا ما جُفيتُ كنتُ جَديرًاً   أنْ أُرَى غيرَ مُصْبحٍ حَيثُ أُمسِي

حَضَرَتْ رَحليَ الهُمُومُ فَوَجّهْـ   تُ إلى أبيَضِ المَدائنِ عَنْسِي

أتَسَلّى عَنِ الحُظُوظِ، وَآسَى   لَمَحَلٍّ مِنْ آلِ ساسانَ، دَرْسِ

أذْكَرَتْنيهِمُ الخُطُوبُ التّوَالي،   وَلَقَدْ تُذكِرُ الخُطُوبُ وَتُنسِي

وَهُمُ خافضُونَ فِي ظِلّ عَالٍ،   مُشرِفٍ يُحسِرُ العُيُونَ وَيُخسِي

مُغْلَقٍ بَابُهُ عَلى جَبَلِ القَبْـ   قِ إلى دَارَتَيْ خِلاطٍ وَمَكْسِ

---

(٤٣) ديوان البحتري : ٢ / ١١٥٢ .

حِلَلٌ لم تكُن كأطْلالِ سُعدَى   في قِفَارٍ مِنَ البَسابِس، مُلْسِ

وَمَسَاعٍ، لَوْلا المُحَابَاةُ منّي،   لم تُطقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعبسِ

نَقَلَ الدّهرُ عَهْدَهُنّ عَنِ الجِدّ   ةِ، حتّى رجعنَ أنضاءَ لُبْسِ

فكَأنّ الجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الأُنْ   سِ وإخْلالِهِ، بَنِيّةُ رَمْسِ

لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أن اللّيالي   جَعَلَتْ فيهِ مأتَماً، بعد عُرْسِ

وَهْوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجائِبِ قَوْمٍ،   لا يُشَابُ البيانُ فيهم بلَبْسِ

وإذا ما رَأيْتَ صُورَةَ أنْطَا   كِيَةَ ارْتَعْتَ بَينَ رُومٍ وَفُرْسِ

والمَنَايَا مَوَاثِلٌ، وأنُوشَرْ   وانَ يُزْجِي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ

في اخضِرَارٍ مِنَ اللّباسِ على أصْ   فَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ

وَعِرَاكُ الرّجَالِ بَينَ يَدَيْهِ،   في خُفُوتٍ منهمْ وإغماضِ جَرْسِ

مِنْ مُشِيحٍ يُهوِي بعامِلِ رُمْحٍ،   وَمُليحٍ، مِنَ السّنانِ، بتُرْسِ

تَصِفُ العَينُ أنّهُمْ جِدُّ أحيَا   ءَ لَهُمْ بَينَهُمْ إشارَةُ خُرْسِ

يَغتَلي فيهِمُ ارْتِيابيَ، حَتّى   تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمْسِ

قَدْ سَقَاني، وَلَمْ يُصَرِّدْ أبو الغَوْ   ثِ على العَسكَرَينِ شُرْبَةَ خَلْسِ

مِنْ مُدَامٍ تَظُنّهَا هِيَ نَجْمٌ   أضْوَأَ اللّيلَ، أوْ مُجَاجَةُ شَمسِ

وَتَرَاهَا، إذا أجَدّتْ سُرُوراً،   وَارْتِياحاً للشّارِبِ المُتَحَسّي

أُفْرِغَتْ في الزّجاجِ مِن كلّ قَلبٍ،   فَهْيَ مَحبُوبَةٌ إلى كُلّ نَفْسِ

وَتَوَهَّمْتَ أنْ كسرَى أبَرْوِيـ
ـزَ مُعَاطِيَّ، والبَلَهْبَذُ أُنْسِي

حُلُمٌ مُطْبِقٌ على الشّكّ عَيْني،
أمْ أمَانٍ غَيّرْنَ ظَنّي وَحَدْسي؟

وَكَأنّ الإيوَانَ منْ عَجَبِ الصّنْـ
ـعَةِ جَوْبٌ في جَنبِ أرْعَنَ جِلْسِ

يُتَظَنّى منَ الكَآبَةِ أنْ يَبْـ
ـدُو لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ، أوْ مُمَسّي

مُزْعَجاً بالفِرَاقِ عن أُنسِ إلْفٍ
عَزّ أوْ مُرْهَقاً بتَطْليقِ عِرْسِ

عكَسَتْ حَظَّهُ اللّيالي وَباتَ الْـ
ـمُشْتَرِي فيهِ، وَهوَ كوْكبُ نَحسِ

فَهْوَ يُبْدي تَجَلّداً، وَعَلَيْهِ
كَلْكَلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدّهرِ مُرْسِي

لَمْ يَعِبْهُ أنْ بُزّ مِنْ بُسُطِ الدّيـ
ـبَاجِ وَاسْتُلّ مِنْ سُتورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ،
رُفِعَتْ في رُؤوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

لابِسَاتٌ منَ البَيَاضِ فَمَا تُبْـ
ـصِرُ منها إلاّ غَلائِلَ بُرْسِ

لَيسَ يُدرَى: أصُنْعُ إنْسٍ لجِنٍّ
سَكَنُوهُ أمْ صُنعُ جِنٍّ لإنْسِ

غَيرَ أنّي أرَاهُ يَشْهَدُ أنْ لَمْ
يَكُ بَانيهِ في المُلُوكِ بِنِكْسِ

فَكَأنّي أرَى المَرَاتِبَ والقَوْ
مَ، إذا ما بَلَغْتُ آخِرَ حِسّي

وَكَأنّ الوُفُودَ ضَاحينَ حَسرَى،
مِنْ وُقُوفٍ خَلفَ الزِّحامِ وَخُنْسِ

وَكَأنّ القِيَانَ، وَسْطَ المَقَا
صِيرِ، يُرَجّعْنَ بينَ حُوٍّ وَلُعْسِ

وَكَأنّ اللّقَاءَ أوّلُ مِنْ أمْـ
ـسِ، وَوَشْكَ الفِرَاقِ أوّلُ أمْسِ

وَكَأنّ الّذي يُرِيدُ اتّبَاعاً
طامِعٌ في لُحوقِهِمْ صُبحَ خَمسِ

عمَــرَتْ للسّــرُورِ دَهْــراً، فصَــارَتْ للتّعـــزّي رِبَـــاعُهُمْ، وَالتّأسّـــي

فَلَهَـــا أنْ أُعِينَهَـــا بِـــدُمُوعٍ، مُوقَفَـاتٍ عَلـى الصّبَابَةِ، حُبْسِ

ذاكَ عنـــدي وَلَيســـتِ الـدّارُ داري، بـاقتِرابٍ منهـا، ولا الجـنسُ جنسـي

غَيـرَ نُعْمَـى لأهلِهَـا عنْـدَ أهلـي، غَرَسُـوا مـنْ زَكَائِهـا خيـرَ غَـرْسِ

أيّـدُوا مُلْكَنَـا، وَشَـدّوا قُـوَاهُ بكُمَـاةٍ، تحـتَ السّـنَوّرِ، حُمـسِ

وأعَـانُوا عَلـى كتَائِـبِ أرْيَـا طَ بطَعْـنٍ علـى النّحـورِ، وَدَعْـسِ

وأرَانـي، مـنْ بَعـدُ، أكْلَـفُ بـالأشْـ رافِ طُـرّاً مـنْ كـلّ سِـنْخٍ وَإسّ

لا يستطيع أحد أن ينكر مكانة القصيدة السينية في شعر البحتري أو في الشعر العربي، فقد قيل حولها، الكثير، فهي بالإجماع تُعدُّ من (دُرَر) البحتري وقمم الشعر العربي ، فإنَّ البحتري بعد أن شهد مصرع المتوكل ووزيره الفتّح ، ولم ينلْ حظوة لدى المُسْتعين، ومن بعده المُعتز. " وصارت الأمور أقرب إلى العامة ودارت التهمة أنه (تَلوي) ، مع الإحساس بُجرح الكرامة وانتفاض النفس على النفس بعد السقوط والابتذال ، ويزيد من هذا كلّهِ. شعورٌ بالغربةِ، والغبنِ في صفقة خاسرة : بيعُهُ الشام واشتراؤهُ العراق! غادر بغداد، مُتوجهاً إلى (المدائن) ، كل هذه العوامل مجتمعةً من شعور بالغُبْنِ والجفاء وضيق المعاش والغربة وانقلاب أحوال الزمان الذي: (أصبح محمولاً هواهُ مع الأخس الأخس) حملت البحتري على الرحيل، وعدَّةُ الرحيل: كما هي عادة الشعراء: ناقة قوية تحمله بعيداً (غيرَ مُصبحٍ حيث

أمسي). وتكون الرحلة إلى (أبيض المدائن) بحثاً عن تعزيةٍ للنفس، واعتبارا بفعل الخطوب والزمان " . (٤٤)

وقد لعبت المفارقة دورا رئيسا فى السينية ، إذ تدور القصيدة حول مقارنة البحترى بين ما كانت حياته عليه قديما ، وما أصبحت حاله عليه الآن وقد هرم وكثرت الهموم عليه فى ضوء فكرة المعادل الموضوعى المتمثل فى إيوان كسرى ، وبالتالى فالقصيدة مفارقة طويلة تمتد من بداية القصيدة إلى نهايتها .

والقصيدة تتكون من سبعة مقاطع ؛ كالتالى :

– المقطع الأول : ويتضمن الأبيات (١ . ٢) :

صُـنْتُ نَفْسِـي عَمّـا يُـدَنِّس نفسـي، وَتَرَفَّعـتُ عـن جَـدا كـلّ جِـبْسِ

وَتَماسَـكْتُ حَـينُ زَعزَعنـي الـدّهْـ رُ التماسـاً منـهُ لتعسِـي، وَنُكسـي

فى البداية يقرر البحترى أنه صان نفسه عن كل ما يمكن ما يشين أو يشوب هذه النفس نقصاً أو ضعفا ، عن أي شيء يمكن أن ينزل هذه النفس من سموها ، غير أن الشاعر، وإن أقر أو توهم أنه صان نفسه عن كل محاولات التدنيس يقر – من حيث يدري أو لا يدري – أن نفسه غدت أرضية ، فهي في مرمى من يصوب إليها الضربات ، ومن ثم يحاول أن يحيطها بسياج يحفظ لها صونها .

ومن ثم فإن الشاعر يبين بمراوغة مفضوحة مفردات هذا الصون : إنه الترفع والكبرياء عن عطاء كل لئيم خبيث ، ويواصل الشاعر حديثه فهو يجاهد ويكابد

(٤٤)الأيقونة اللفظية في القصيدة السينيّة : طراد الكبيسي ، مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد ٣٤٤ السنة التاسعة والعشرون ، كانون الأول ١٩٩٩ شعبان- ١٤٢٠، ص٣٢-٣٥ ، وانظر أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة فى نص " صنت نفسي " : قرشى دندراوى ، دار أتيل ، قنا ، ١٩٩٨م ، ص٦، حيث يقول قرشى دندراوى : " وماذا عليك أن تقول الآن : قال البحترى يصف إيوان نفسه ؟ "

لوقف ضربات القدر ، إنه صراع الأضداد ، صراع بين من يحب الحياة ومن يلقي بأسباب الموت ، صراع بين " الذات " و " الدهر " .

المقطع الثاني : ويتضمن الأبيات (٣ . ٦) :

بُلَّـغٌ مِـنْ صُـبابَةِ العَـيشِ عنـدِي، طَفَّفَتْهـا الأيّـامُ تطفيـفَ بَخْـسِ
وَبَعيـدٌ مَـا بَـينَ وَارِدِ رِفْـهِ، عَلَـلٍ شُـرْبُهُ، وَوَارِدِ خِمْـسِ
وَكَـأنّ الزّمَـانَ أصْـبَحَ مَحْمُـو لاً هَـوَاهُ مَـعَ الأخَـسّ الأخَـسّ
وَاشْـتِرَائي العِـرَاقَ خِطّـةَ غَـبْنٍ، بَعـدَ بَيعـي الشّـآمَ بَيعـةَ وَكْـسِ

وتبين لنا صورة الذات الإنسانية للشاعر في جانبها المادي ، و" كأننا بالشاعر بعد أن قدم صورة عامة لذاته وتحولاتها يتوقف قليلا ليبين لنا مقاطع تفصيلية لذاته وما حدث لها وما كانت عليه ، وينتقل بكاميراه إلى ما يلح عليه : وهو إظهار الذات في شقها المادي ؛ وكأننا بالشاعر وقد هجم عليه العمر والإعدام وأصيبت ذاته ضعفاً وعجزاً ، صارت الذات لا تملك ما يسد الرمق ولا يفضل عنه شيء ومع هذا فإن ما أبقاه العيش والأيام من بقايا تهاجمه الأيام بكل خسة ودناءة " [٤٥] .

ثم يجسد لنا ما صارت إليه هذه الذات وما كانت عليه ، متكئا على البعد الكنائي ، إشفاقا على نفسه أو علوا ؟ ما أبعد البون بين الذي كان يرد المياه عذباً فراتاً سلسبيلاً ، نهلا وعللا ، وبين الذي صار يظمأ خمسة أيام حتى يردها .

إنها الحياة الموت ما أبعد الحال بين الذي كان يملك كل شيء وبين الذي لم يعد يملك شيئاً، إنه الزمن الذي أصبح يصرف الأقدار ، فأعطى مقاديره اللئام ،

---

[٤٥] أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة في نص " صنت نفسي " : ص١٤ .

وأنى للئام أن تعرف حق الفضلاء وما للشاعر نفسه ، يتلبس تخبط الدهر والأيام فيصبح اشتراؤه العراق وهما أن باع الشام بيعة خاسرة .

فالشاعر يقدم المفارقة عن طريق منظومة من الثنائيات المتضادة يمثلها حقلان دلاليان ، حقل يمثل دلالات اكتمال أسباب الحياة رغدا وحقل يمثل دلالات العدم والإعصار لهذه الذات في جانبها المادي ، غدا ضد ما كان عليه ، هذه صورة الذات أو محددات شخصية الشاعر في جانبها المادي بما كانت عليه وما صارت إليه .

– المقطع الثالث : ويتضمن الأبيات (٧ . ١٣) :

لا تَرُزْنِي مُزَاوِلاً لاخْتَبارِي،   بعد هذي البَلْوَى، فتُنْكرَ مَسّي
وَقَديماً عَهِدْتَني ذا هَنَاتٍ،   آبياتٍ، على الدّنِياتِ، شُمْسِ
وَلَقَدْ رَابَنِي نُبُوُّ ابنِ عَمّي،   بَعدَ لِينٍ مِنْ جانِبَيهِ، وأُنْسِ
وإذا ما جُفيتُ كنتُ جَدِيراً   أنْ أُرَى غيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أُمسِي
حَضَرَتْ رَحليَ الهُمُومُ فَوَجّهْـ   ـتُ إلى أبيَضِ المَدائنِ عَنْسِي
أتَسَلّى عَنِ الحُظُوظِ وَآسَى   لمَحَلٍّ مِنْ آلِ ساسانَ، دَرْسِ
أذْكَرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التّوَالي،   وَلَقَدْ تُذكِرُ الخُطُوبُ وَتُنسِي

وتمثل أبياتها صورة ذات الشاعر في جانبها المعنوي في حالتها ما كانت عليه وما صارت إليه ، " حيث يدخل الشاعر صوتا جديدا في حركية هذه الرؤية ، يتمثل هذا الصوت في استحضار مخاطب يتحدث إليه الشاعر ، فيبدأ معه حوارية

أمرا راجيا ألا يحاول أن يحصي بقية أمره أو يعرف ما صار إليه شأنه محاولة من المخاطب إليه أن يختبر المخاطب ، فبعد هذه المآسي والمصائب التي ألمت به ، وأهبطته من عال إلى خفض إلى عسر ، ومن خفض إلى عسر ، وما الذي يتوقعه المخاطب إليه " [٤٦].

فهو يقدم تصويرا لما كان عليه قديما وما كانت عليه نفسه ، كانت في رشد ، متحققة ، فعالة ، تحتوي ، تؤثر ، يستهدي بها ، وغدت مضطربة ، مأزومة ، منقطعة عن العالم الخارجي ، فيذكّر المخاطب إليه بما كانت عليه هذه الذات من خصال ومحددات كان يعرفها ويعهدها أو لما يعهدها بعد ، فكأن الناس لم تعهد ذلك .

وها هي ذي صارت لا أبيات ولا شمساً وإنما تلوثت أو ذابت أو أصبحت طللا دارساً ، ويواصل الشاعر إظهار ملمح من ملامح تكوينية هذه الذات وعلاقتها العالم الخارجي والآخرين ، إنها ذات كانت قد جلبت على المؤاخاة والافتقار إليها والمؤانسة بها ، إنها ذات مؤثرة تتعامل بحركية مثلى مع العوامل الخارجية التي على شاكلتها ، بيد أن هذه الذات تعرضت لانهيار تلك المؤثرات أصبحت مشككة في أمرها ، أو أصابها التشكك جراء ما حدث من ابن عمه الذي بادله ليداً بأنس ، وأنساً بأنس .

ويؤكد الشاعر أن ما طرأ على الملمح هو تغيرات ضدية ، ومن ثم يرتد إلى نفسه ، ويستقوي ذاته قبل أن تضيع تماما قائلا ليس هو الجفاء من ابن عمه

---

[٤٦] أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة في نص " صنت نفسي " : ص١٦ .

فحسب ، وإنما من هذه القطعية المتلبسة بكل هذه المؤثرات والمتوقع حدوثها (إذا ما جفيت) .

إن مجاهدة الشاعر لتغيير الزمان يتداعى معها تغيير المكان ، " إنه التغيير الحتمي بعد أن أصبحت الأرض لا الأرض التي يتواصل فيها ويوجد فيها ويتواجد بها ولا الزمان الزمان الذي يسكنه ، فإنه يرتجي بالإصباح ولادة جديدة لهذه الذات ، إنه الخروج من سم الخياط الذي يلح فيه إلى جنة متخلقة بعد أن ترك النار التي تلظي بها ، يواصل الشاعر تصوير انخلاعه من الزمان والمكان الذي هو فيهما إلى الزمان والمكان الذين يعيشان هما فيه ، فيبدأ هذه الوحدة لتصوير تحقيق هذا الانتقال أو هذا التحول الذي يثني بأن الهموم التي هي مجموع كل عوامل الدفع هدت به إلى ذلك التغيب في البديل ، بعد أن استغرقته قلباً وقالباً انتقلت إلى ما يملك "[٤٧] .

ويتواصل بقوله " فوجهت" : وكأنه يلتقط أو يرى وهو في مكانة القديم ، للبديل المتمثل في " أبيض المدائن " وإنه خروج من الهموم وظلامها من التوحش والصحراء إلى المدائن ونورها وحيويتها وعمارها مستخدما أداته هو فقط القوية القادرة على نقله من صحراء الضياع والاغتراب والانهيار والعدمية إلى التحقيق والفاعلية والديمومة .

يواصل الشاعر بوعي شديد ، يكشف عن التمسك بتلابيب الحياة المتواصلة بقوله " أتسلي " إنه يتسلى بهذه الأقدار التي أصابته هو ، ليوقف من قوتها ، أو

---

[٤٧] أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة في نص " صنت نفسي " : ص١٧ .

ليتأسى لمحل دارس لآل ساسان ، ما أقرب اللفظين محل ، ومحل ، وما أبعدهما دلالة ، لكأن هذه الديار (المحل) غدت مثل طلليات العرب التي كم وقف الشعراء وأوقفوا وبكوا واستبكوا على ما ضاع فيها ومنها من تواصل إنساني حميم يمثل روعة الحياة وبهاءها .

وإنه عليه أن يخرج من سبل الموت حياة ، ويخلق من هذه الخطوب عوناً له ليواصل الحياة ، فخراً بما مضى ، واقتناعا بما سيبقى خالدا أبداً .

المقطع الرابع : ويتضمن الأبيات (١٤ . ١٨) :

وَهُـمُ خافضُـونَ فـي ظِـلِّ عَـالٍ، مُشْـرِفٍ يُحسـرُ العُيـونَ وَيُخسِـي
مُغْلَـقٌ بَابُـهُ عَلـى جَبَـلِ القَـبْـ ـقِ إلَـى دَارَتَـيْ خِـلاطٍ وَمَكْـسِ
حِلَـلٌ لَـم تَكُـنْ كَـأطْلالِ سُـعدَى فـي قِفَـارٍ مِـنَ البَسَـابسِ، مُلْـسِ
وَمَسَـاعٍ، لَـوْلا المُحَابَـاةُ مِنِّـي، لَـم تُطقهـا مَسـعاةُ عَـنسٍ وَعَـبسِ
نَقَـلَ الـدّهرُ عَهْـدَهُنّ عَـنِ الجِـدّ ةِ، حتّـى رجعـنَ أنضَـاءَ لُـبْسِ

حيث يفرد الشاعر ما كان عليه بنو ساسان ، (إنساناً وحضارة) وهم " خافضون في ظل عال إنه يراهم الآن ناعمي العيش في ظل هذا الجبل العالي ، وأني لمثلهم يحيون على سفوح البسيطة ؟ وإنما يحيون (حياة أولى نعمة وحياة أبدية) في علو وفي أعلى على الأرض ، وكل من أراد أن يمد إليهم عينيه – في حياتهم – سوف يرتد إليه بصره خاسئا وهو حسير ، إنها ديار جابوا عمارها من كل ما هو عظيم طبيعيا (الجبال) وما هو أدق عظمة (بنيان) ومن ثم فهي " حلل " ، ولمن لا يعرف كيف تستمر الحياة وسبل الخلود في مثل هذه " الحلل :

فلا تثريب عليه لأنه لا يعرف إلا " الحلل " التي ما أن يفارقها أهلوها حتى تفارقها الحياة ، وتصبح مرتعا للموت والخراب "[٤٨] .

وبين آل ساسان وأياديهم البيضاء التى هى مآثر ومكرمات قدمتها الحلل أو من أقام هذه الحلل ، فالمعنى متلبس بينهما ، ولا تستطيع أمة من الأمم التي عاصرتها أن تقدمها ، وحملها الشاعر وحده ، ثم يخبرنا الشاعر على نحو خاطف ومباغت أن الدهر نقل عهدهن ، سيان كانت الحلل أو المساع ، فالمعنى متلبس بينهما أيضا من حال إلى حال مضادة .

المقطع الخامس : ويتضمن الأبيات (١٩. ٣٤) :

فَكَــأنّ الجِرْمَــازَ مِــنْ عَــدَمِ الأُنْ　　　سِ وإخْلالِــهِ، بَنِيّــةُ رَمْــسِ

لَــوْ تَــرَاهُ عَلِمْــتَ أنّ اللّيَــالي　　　جَعَلَــتْ فيــهِ مأتَمــاً، بعــد عُــرْسِ

وَهْــوَ يُنْبِيــكَ عَــنْ عَجائِــبِ قَــوْمٍ،　　　لا يُشَــابُ البَيَــانُ فــيهم بِلَــبْسِ

وإذا مَــا رَأيْــتَ صُــورَةَ أنْطَــا　　　كِيَــةَ ارْتَعْــتَ بَــينَ رُومٍ وَفُــرْسِ

والمَنَايَــا مَوَاثِــلٌ، وأنُوشَــرْ　　　وانَ يُزْجِي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ

فــي اخضِــرَارٍ مِــنَ اللّبَــاسِ علــى أصْ　　　فَــرَ يَخْتَــالُ فــي صَــبيغَةِ وَرْسِ

وَعِــرَاكُ الرّجَــالِ بَــينَ يَدَيْــهِ،　　　فــي خُفُــوتٍ منهمْ وإغمَـاضِ جَـرْسِ

مِــنْ مُشِــيحٍ يُهْــوِي بعامــلِ رُمْــحٍ،　　　وَمُلِــيحٍ، مِــنَ السّــنَانِ، بتُــرْسِ

تَصِــفُ العَــينُ أنّهُــمْ جِــدُّ أحيَــا　　　ءٍ لَهُــمْ بَيــنَهُمْ إشَــارَةُ خُــرْسِ

---

[٤٨] أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة فى نص " صنت نفسي " : ص١٩ .

يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتِيابِيَ، حَتَّى   تَتَقَرّاهُمُ يَدَايَ بِلَمْسِ
قَدْ سَقَانِي، وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبُو الغَوْ   ثِ على العَسْكَرَيْنِ شُرْبَةَ خَلْسِ
مِنْ مُدَامٍ تَظُنُّهَا هِيَ نَجْمٌ   أَضْوَأَ اللَّيْلَ، أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ
وَتَرَاهَا، إِذَا أَجَدَّتْ سُرُوراً،   وَارْتِيَاحاً لِلشَّارِبِ المُتَحَسِّي
أُفْرِغَتْ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ،   فَهْيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسِ
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى أَبَرْوِيـ   ـزَ مُعَاطِيَّ، وَالبَلَهْبَذُ أُنْسِي
حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلَى الشَّكِّ عَيْنِي،   أَمْ أَمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وَحَدْسِي؟

وهي تمثل رؤية الشاعر للمعادل الموضوعي لذاته " الجرماز " بما صار إليه وما كان عليه وعلاقته به في فترة الارتداد الزمني المتعلق بينهما .

ونلحظ أن الشاعر استطرد استطرداً طبيعيا بعد أن بدأ وختم بديار آل ساسان ، بكونها معالم دارسة ، ثم بين البداية والنهاية ما كانت عليه ديار آل ساسان ، وكأنه يبدأ – دائما – بأول لقطة عينية ، ثم يرتد بالزمان إلى ما كان فتهبط به الرؤية إلى ما صارت إليه تلك الديار " إن ما حدث للجرماز كان ضربة غدر من ضربات الدهر ، قلب ليلة عرسه ليلة مأتم ، ما أبشع التحول ، وما أضيق الزمن الذي حدث فيه أو صار متلبساً في حالته ورؤيته لرأي الإيوان / الجرماز بهذا الأمر ، ولرأى انقلاب الأيام عليه ، وتحويل – في لحظة خاطفة – الحياة في أزهر مظاهرها إلى الموت في أبكى مشاهده ، غير أن ما تناسخ فيه الإيوان / الجرماز من خلود ينبئك ، أي نبأ عظيم ينبئ به ؟ إنه ينبئ عن عجائب اختلط على كل

الناس من الذي يصنع ذلك الصنع ، وقطع القدامى بأن الجن هو الذي شيّد هذا البنيان أو هذا الإعجاز ، إنهم أهل البيان الساحر ، ثم يبدو الشاعر وهو يتأمل صورة معركة إنطاكية ، فإذا به يتسلى وهو يشاهد عرضها البانورامي وإنما سيقذف إليها قذفاً " [٤٩] ، هذه الصورة التي بدا عليها الإيوان للشاعر ما هي إلاّ تعبيرٌ عن حاله، وتجسيد لصورة ذاته: تعود الذاكرة بالشاعر إلى ماضيه الحافل بالمسرّات، وتتبدى له حاله في لحظته الحاضرة. هاتان اللحظتان تتجليان في نفس الشاعر فتبرزان في مشهد الإيوان، إن لم نقل إن الإيوان هو الذي أثارهما فيها. والصورة بلحظتيها توحي بمشاعر الحزن والأسى التي سيطرت على الشاعر فأعادت إلى ذاكرته صور الماضي السعيد، فراح يقارن بينها وبين حاضره التعيس [٥٠].

ثم ينتقل البحتري إلى عرض مجموعة من الصور المفارقية ؛ حيث يصف صور معركة أنطاكية ، فها هو ذا أنوشروان الذي يسوق الكتائب تحت علمه الكبير ، وهو يمتطي حصانه بكل ما عليه من ملابس حريرية ، إنه كسري أنوشرون يقود هذه المعركة ويتوجس المقاتلون إزعاجه ، ومن ثم ترى الرجال المتقاتلين فرساً وروماً ، تتعارك بين يديه في طحن أخرس ، إن العين لتصف من دقة الصورة أو الأثر الفني من هذه الجملة ، أنهم أحياء ينبضون ، يتحركون يفعلون كل شيء يتكلمون ، كل ما في الأمر أن اللغة أشارية فقط ، ويحار الشاعر المزداد ذوباناً في هذه اللوحة ، وكاد يختلط الزمن ما ضويا أو واقعياً ، فيلجأ إلى وسيلة إفاقة استخدام يديه ليعرف هل ما يراه حلما أم حقيقة يحياها ؟

---

[٤٩] أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة في نص " صنت نفسي " : ص٢٠ .

[٥٠] الصورة الفنية في شعر الطائيين : ص ٧٣

ثم يقرر الشاعر أنه شرب خمرا وكأنها نخب ذلك الانتصار ، والذي سقاه هو ابنه (أبو الغوث) من تلك الخمر إلا أنها خمر جعلت من الليل وظلامه وكربه صباحاً وضياء ومعاشاً ، إنها خمر لا تحدث إلا السرور والارتياح ، تكاد لا تكون من كرم وإنما هي عصير الأفئدة ، فهي محببة إلى كل نفس ، ولا يمكن لأية نفس أن تعرض وتنأى عنها ، كيف يمكن لنفس أن تبعد عن أداة تحققها ، حلماً ، أماني ، إن كسري أبرويز الذي يعرف التاريخ من هو ، غدا قائما على منادمة البحتري ، وسقياه الخمر .

صار البحتري يمتلك أبرويز نفسه وما يملك ، فهو في أبيض المدائن ، وأبرويز يعاطيه الخمر ، والبلهبذ يؤانسه ، إنه لا يدري في نهاية تلك الوحدة / الصورة إذا ما كان ذلك حلماً أم أماني .

المقطع السادس : ويتضمن الأبيات (٣٥ . ٤٩) :

وَكَأنّ الإيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصّنْـ ... ـعَةِ جَوْبٌ في جَنبِ أرْعَنَ جِلْسِ

يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ أنْ يَبْـ ... ـدُو لعَيْنَي مُصَبِّحٍ، أوْ مُمَسّي

مُزْعَجاً بالفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إلْفٍ ... عَزّ أوْ مُرْهَقاً بتَطلِيقِ عِرْسِ

عكَسَتْ حَظُّهُ اللّيَالي وَبَاتَ الـ ... ـمُشْتَرِي فيهِ، وَهْوَ كَوْكبُ نَحسِ

فَهْوَ يُبْدي تَجَلُّداً، وَعَلَيْهِ ... كَلكَلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدّهْرِ مُرْسِي

لَمْ يَعِبْهُ أنْ بُزّ مِنْ بُسُطِ الدّيـ ... ـبَاجِ وَاستُلّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ، ... رُفِعَتْ في رُؤوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

لابسَـــاتٌ مـــن البَيَـــاضِ فَمَـــا تُـــبْ صِــــرُ منهـــا إلاّ غَلائــــلَ بُـــرْسِ

لَــيسَ يُــدرَى: أصُــنْعُ إنْــسٍ لجِــنٍّ سَـــكَنوهُ أمْ صُــنعُ جِــنٍّ لإنْــسِ

غَيــرَ أنّـــي أرَاهُ يَشْـــهَدُ أنْ لَـــمْ يَــكُ بَانيــهِ فــي المُلُــوكِ بِــنِكْسِ

فَكَـــأنّي أرَى المَرَاتِـــبَ والقَـــوْ مَ، إذا مــا بَلَغْــتُ آخِــرَ حِسّــي

وَكَـــأنّ الوُفُـــودَ ضَـــاحينَ حَسْـــرَى، مِــنْ وُقُــوفٍ خَلْــفَ الزّحــامِ وَخُنْسِ

وَكَـــأنّ القِيَـــانَ، وَسْـــطَ المَقَـــا صِــيرِ، يُــرَجّعنَ بَــينَ حُــوٍّ وَلُعْــسِ

وَكَـــأنّ اللّقَـــاءَ أوّلُ مِـــنْ أمْ سِ، وَوَشْــكَ الفِــرَاقِ أوّلُ أمْــسِ

وَكَـــأنّ الـــذي يُرِيـــدُ اتّبَاعـــاً طَــامِعٌ فــي لُحُــوقِهِمْ صُــبحَ خَمسِ

تمثل أبيات هذه الوحدة عرضاً آخر للصورة الجرماز / الإيوان ، وقدراته ، وصورة ما آل إليه ، وصورة ما هو فيه في الزمن المتلبس الماضي الحاضر ، وتمثل الوحدة – من جانب تأويلي – عرضا آخر لذات السارد وشخصيته (البحتري) في جانبها المعنوي ، وما آلت إليه ذاته في هذا الجانب .

وتعرض الأبيات فى بداية هذه الوحدة رؤية الشاعر للإيوان ، وإن كان الشاعر لن يرهقنا البتة تأويلاً وتفسيراً ، فالأمر أيسر مما يظنه ظانٌّ ، ماذا علينا لو استبدلنا لفظة الذات بلفظة الإيوان ، ها هو ذا الشاعر يستطرد بعد أن توقف في الوحدة السابقة (الجرماز في الجانب المادي له) واصفا في هذه الوحدة الإيوان (الجرماز في جانبه المعنوي) بإنه من عجب الصنعة كأنه قد تخلق جبلاً من جبل ، كأنه قد قُدَّ من أوتاد الأرض الرواسي التي تحفظ للبسيطة توازنها ، كأنه جبل مما

لا يداني علواً وروعة وإعجازاً . " ما الذي حدث لهذا المعجز ؟ ؛ إنه لمن ينظر إليه – صباحاً ومساءً – مفعم بالأسى والحزن والإحباط والكآبة ، إنه غدا – يتنفس الحزن والكآبة والتألم والفقد ليلا ونهاراً ، صبغت الكآبة زمنه الآني تماماً ، إنه – لمن ينظر إليه بعينيه لا بقلبه صباحاً ومساءً – مزعج بالفراق عن أنس ألف عز ، إنه الإيوان يرى يتخبط داخليا ، أتراه غدا مفارقا أليفاً أو أن هذا الأليف الذي كم منحه أعوانه وروعة التواصل تهرب منه ؟؛ هل هو ذلك المحب العاشق الزوج الذي يجبر على أن يطلق عرسه / روحه جبراً ، فيموت كمدا وحسرة وصبراً " [٥١].

إنه لا حول له لا في هذا ولا في ذلك ، إنما هي الليالي وأقدارها التي جعلت منه طالع شر ، كيف تتحول الحياة إلى شرك للموت ، وعلى الرغم من كل هذا وذلك فإن الإيوان صامد لا يبدي إلا تجلداً ، ماذا يعيبه إن اقتطعت منه بعض أسباب الحياة ، حتى وإن كانت هذه الأسباب مما توازي الديباج والدمقس ، إنه لا يزال شامخاً ، تعلو هاماته كل ما يظن أنه عال عليه أو حتى يتوهم أنه يدانية أو يطاوله ، إن الإيوان نفسه – لعظمة ما فيه – اختلط عليه الأمر ، هل هو وضع من قبل عاديين (أناس) ، ليسكنه قوم غير عاديين (جن) أم ضد ذلك ؟

وانظر إلى المفارقة فى تصويره الإيوان ومن بناه ، فإن الإيوان صنع إنس غير عاديين لإنس غير عاديين أيضاً ، وإذا ما واجه من لا يدري حقائق التاريخ والخلود بأنهم عاديون إذ أين هم الآن ؟ ، يجيب الشاعر بأن الإيوان نفسه لا يزال يشهد بأن بانيه ، ومن يسكنه لم يكن في الملوك نكسا أو قاصرا أو عيباً ، فلا يزال

---

[٥١] أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة فى نص " صنت نفسي " : ص٢٣.

المشهد كما هو ، والحياة عامرة في أرجائه كما هي ، فليجهدن الرائي المنكر نفسه حتى يشنف آذانه بموسيقا حركية تلك الحياة ، ويكحل عينية بمظاهر تلك الروعة الحضارية في جوانب الإيوان وأروقته وهكذا جعل الشاعر الوصول إليهم بعد جهد جهيد ، ومزاحمة الذين يستقبلون الإيوان وأهله ويحجون إليه وخاصة في أزهى أيامهم ، احتفالات وأعياد ومواسم ، يرى السارد الناس والأقوام يتزاحمون إلى الإيوان ، وها هم المقبولون إليه ولما يدخلوا بعد (ضاحين حسرى) ، والمتلهفون إلى الدخول ، وها هم المتخلفون عن الصفوف فيما وراءها ، فها هي ذي القيان الحسان اللواتي امتلكن اكتمال الجمال معنى ومبنى ، إنشادا وغناء وطرباً ورقصاً ، وبل اكتمل الغناء بروعة الصوت وبروعة الشفاه التي تخرج هذه الأهازيج حوا ولعسا إنه سكر مزدوج .

إن الأيام والدنيا التي كانت ملئ يديه مراراً غدرت به وجعلت استمرار طالع سعده شؤم ونحس ؛ لكنه يصبر ويتجلد ، فلا يظن أحد معاصريه أنه تهادى أو ضعف أو تساقط ، إن ما قدمه يرتفع فوق كل ما قدمت العرب من شعر وشاعرية ، فلا تزال كما هي .

- المقطع السابع : ويتضمن الأبيات (٥٠ – ٥٦) :

عَمَرَتْ للسُّرُورِ دَهْراً، فَصَارَتْ ... لِلتَّعَزِّي رِبَاعُهُمْ، وَالتَّأَسِّي

فَلَهَا انْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ، ... مُوقَفَاتٍ عَلى الصَّبَابَةِ، حُبْسِ

ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتِ الدَّارُ دارِي، ... باقْتِرَابٍ منها، ولا الجِنْسُ جِنسِي

غَيْرَ نُعْمَى لأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي، ... غَرَسُوا مِنْ زَكَائِها خَيرَ غَرْسِ

أيَّــــدُو مُلْكَنَـــــا، وَشَـــدّوا قُـــوَاهُ   بِكُمَـــاةٍ، تحــتَ السّــنَوّرِ، حُمْــسِ

واغـــلُّوا عَلَـــى كتَائِـــبِ أرْيَـــا   طَ بِطَعْـنٍ علـى النّحـورِ، وَدَغْـسِ

وأرَانِـــي، مـــنْ بَعــدُ، أكْلَــفُ بـــالأشْ   رافِ طُــرّاً مــنْ كــلّ سِـنْخٍ وَإسّ

وتمثل هذه الأبيات امتداد المفارقة فى القصيدة حين يجمع الشاعر فى أسلوب مفارقى بين حاله وديار الفرس فقد " عمرت للسرور زمنا مديدا وأعطيت مظاهر الحياة كثيرا في فتوتها وعصرها وشبابها ، وكم أعطت شخصية البحتري أيضا طيلة حياته مثل هذا ، غير أن هذه الديار صارت في هرمها أدعى إلى العظة والتأسي ، ولابد لهذه الديار/الذات أن يعينها ، ويمد لها في عمرها ، يساعدها على البقاء يمنحها التأسي والتعزي بدموع موقفات على الصبابة حبس ، أي توحد صار بينهما ؟، فإن آل ساسان (وديارهم) أعطوا كثيرا أهله وأيدوا ملكهم ، وأعانوهم قديما بما استطاعوا من سبل ، هذه صورة الذات في مرحلة مشاعها في كل آخر عظيم ، إنها غدت عطاء أو رمزا للعطاء والفضل والمكرمات ، مرحلة الإحلال في العطاء والمآثر والخير ، والبيت الأخير يمثل ما بين أول القصيدة " صنت نفسي " وآخرها "وأراني من بعد" من الحلول والشيوع في كل شيء عظيم " (٥٢) ، ومن هنا فالشاعر يوضح فى نهاية الأبيات مغزى القصيدة ويؤكده .

(٥٢)أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة فى نص " صنت نفسي " : ص٢٥-٢٦ .

٤ – قصيدة الذئب للبحتري [٥٣] : (طويل)

سَــلامٌ عَلَــيْكُمْ، لا وَفَــاءٌ وَلاَ عَهْــدُ، أَمَــا لَكُــمُ مِــن هَجْــرِ أحبــابكُمْ بُــدُّ
أأحبابَنَــا قَــدْ أنجَــزَ البَــينُ وَعْــدَهُ وَشِــيكًا، وَلَــمْ يُنْجَــزْ لنَــا مــنكُمُ وَعْــدُ
أأطْــــلالَ دارِ العامرِيّـــــةِ بِـــــاللِّوَى، سَقَتْ رَبعَكِ الأنْـوَاءُ، مـا فعلَـتْ هنـدُ؟
أدَارَ اللِّــوَى بَــيْنَ الصــريمَةِ والحمَــى، أمَـا للهَـوَى، إلاّ رَسـيسُ الجَـوَى قَصْـدُ
بِنَفْسِــيَ مَــنْ عَــذَّبْتُ نَفسِــي بحُبِّــهِ، وإنْ لَــمْ يكُــنْ منــهُ وِصَــالٌ، وَلاَ وِدّ
حَبيـبٌ مَـنِ الأحبـابِ شَـطّتْ بِـهِ النّـوَى، وأيُّ حَبيـبٍ مـا أتَـى دونَـهُ البُعْـدُ
إذا جُــزْتَ صَــحْرَاءَ الغُــوَيْرِ مُغَرِّبًــا، وَجَازَتْـكَ بَطْحَـاءُ السّـوَاجِيرِ يـا سَـعْدُ
فقُــلْ لبَنــي الضّــحّاكِ: مَهْــلًا، فــإنّني أنَـا الأُفْعُـوَانُ الصِّـلُّ والضّـيغَمُ الـوَرْدُ
بَنــي واصِــلٍ مَهْــلًا، فــإنّ ابــنَ أُخــتكم لَــهُ عَزَمَــاتٌ هَــزْلُ آرَائهَــا جِــدّ
متــى هِجْتُمُــوهُ لا تَهيجُــوا سِــوَى الــرّدى، وإنْ كَــانَ خِرْقًــا مــا يُحَــلُّ لَــهُ عَقْــدُ
مَهيبًــا كَنَصْــلِ السّــيفِ لَــوْ قَــذفَت بِــهِ ذُرَى أجَــإٍ ظَلّــتْ وأعلامُــه وَهْــدُ
يَــوَدُّ رِجَــالٌ أنّنــي كُنــتُ بَعــضَ مَــنْ طَوَتْــهُ المنايــا، لا أرُوحُ وَلا أغــدُو
وَلَــوْلا احتمَــالي ثِقْــلَ كُــلِّ مُلمّــةٍ، تَسُـوءُ الأعـادي،لم يَـوَدّوا الـذي وَدّوا
ذَرِينــي وإيّــاهُمْ، فَحَســبي صَــرِيمَتي إذا الحَـرْبُ لَـمْ يَقْـدَحْ لمُخْمِـدِها زَنْـدُ
وَلــي صَــاحبٌ عَضْــبُ المَضَــارِبِ صَــارِمٌ، طَوِيــلُ النِّجَــادِ، مــا يُفَــلُّ لَــهُ حَــدّ

---

[٥٣] ديوان البحترى : ١ / ٧٤٠ – ٧٤٥

وَبَاكِيَةٍ تَشْكُو الفِرَاقَ بأدْمُعٍ ... تُبَادِرُها سَحًّا، كَمَا انتَثَرَ العِقْدُ
رَشَادَكِ لا يُحْزِنْكِ بَينُ ابنِ هِمَّةٍ ... يَتُوقُ إلى العَلْيَاءِ لَيسَ لَهُ نِدُّ
فَمَنْ كَانَ حُرًّا فَهْوَ للعَزْمِ والسُّرَى، ... وَلِلّيلِ من أفعالِهِ، والكَرَى عَبْدُ
وَلَيْلٍ، كأنَّ الصّبحَ في أُخْرَيَاتِهِ، ... حُشَاشَةُ نَصْلٍ، ضَمَّ إفرِندَهُ غِمدُ
تَسَرْبَلْتُهُ والذِّئْبُ وَسْنَانُ هَاجِعٌ، ... بِعَينِ ابنِ لَيلٍ، ما لهُ بالكَرَى عهدُ
أُثيرُ القَطا الكُدْرِيَّ عَنْ جَثَمَاتِهِ، ... وَتَألَفُني فيهِ الثّعَالبُ، والرُّبْدُ
وأطْلَسَ مِلْءِ العَينِ يَحملُ زَوْرَهُ، ... وأضْلاعُهُ منْ جَانِبَيْهِ شَوًى نَهْدُ
لَهُ ذَنَبٌ مثلُ الرِّشَاءِ يَجُرّهُ، ... وَمَتنٌ كَمَتنِ القَوْسِ أعوَجُ، مُنْأدُ
طَوَاهُ الطَّوَى حَتّى استَمَرَّ مَرِيرُهُ، ... فَما فيهِ إلاّ العَظْمُ والرّوحُ والجِلْدُ
يُقَضْقِضُ عُصْلاً، في أسِرّتِها الرّدى، ... كَقَضْقَضَةِ المَقْرُورِ، أرْعَدَهُ البَرْدُ
سَمَا لي، وَبي مِنْ شِدّةِ الجوعِ ما بهِ، ... بِبَيداءَ لمْ تحسسْ بها عيشَةٌ رَغْدُ
كلانا بها ذِئْبٌ يُحَدّثُ نَفْسَهُ ... بصَاحبِهِ، والجَدُّ يُتْعِسُهُ الجَدُّ
عوَى ثمّ أقْعَى، وارتَجَزْتُ، فَهِجْتُه، ... فَأقْبَلَ مثلَ البَرْقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ
فأوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ، تَحسَبُ رِيشَها ... على كوكَبٍ يَنقَضُّ واللّيلُ مُسوَدُّ
فَمَا ازْدادَ إلاّ جُرْأةً وَصَرَامَةً، ... وأيْقَنْتُ أنّ الأمْرَ منْهُ هوَ الجِدُّ
فَأتْبَعْتُهَا أُخْرَى، فأضْلَلْتُ نَصْلَهَا ... بحَيثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ
فَخَرَّ وَقَدْ أوْرَدْتُهُ مَنهَلَ الرّدَى ... على ظَمَإٍ، لَوْ أنّهُ عَذُبَ الوِرْدُ

وَقُمْتُ فجَمّعتُ الحَصَى، فاشْتَوَيتُه		عَلَيْهِ، ولِلرّمضَاءِ مِن تحتهِ وَقْدُ
وَنِلْتُ خَسيسًا منهُ، ثُمّ تَرَكْتُهُ،		وأقْلَعْتُ عَنهُ، وَهْوَ مُنْعَفِرٌ فَرْدُ
لَقَدْ حَكَمَتْ فينا اللّيالي بجَوْرِها،		وَحُكمُ بَنَاتِ الدّهرِ لَيسَ لَهُ قَصْدُ
أفي العَدلِ أنْ يَشقَى الكَرِيمُ بجَوْرِها،		ويأخُذَ منها صَفوَها القُعدُدُ الوَغْدُ
ذَرِيني مِن ضَرْبِ القِداحِ على السُّرَى،		فعَزْمي لا يَثْنيهِ نَحسٌ، ولا سَعدُ
سأحمِلُ نَفسِي عندَ كلّ مُلمّةٍ		على مثلِ حدّ السّيفِ أخلَصَهُ الهندُ
ليَعْلَمَ مَنْ هَابَ السُّرى خَشيةَ الرّدى		بأنّ قَضَاءَ الله لَيسَ لَهُ رَدّ
فإنْ عشتُ مَحمودًا فمثلي بغَى الغنى		ليَكسِبَ مالاً، أو يُنَثَّ لَهُ حَمْدُ
وإنْ مُتُّ لمْ أظفرْ، فلَيسَ على امرِئٍ		غَدا طالبًا، إلاّ تَقَصّيهِ، والجُهْدُ

- **البحتري:**

البحتري هو أبو عبادة الوليد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن جابر بن سلمه بن مسهر بن الحارث بن جشم بن أبي حارثة بن جدي بن بدول بن بحتر ولد في العام السادس بعد المائتين للهجرة بمنبج ، وهي مدينة تقع بين حلب والفرات وقيل أنه ولد بزردفنة وهي قرية من قرى منبج . (٥٤)

وفي مدينة منبج كان يختلف إلى إعراب طيء من البادية ، فيأخذ منهم الفصيح ، ويرتشف منهم أفاويق البلاغة ، وكان فى أول أمره من الشعر ينشد الشعر فى أى شيء حتى البائعين فى الأسواق ، فيذكر ابن خلكان : " أن

(٥٤)وفيات الأعيان : لابي العباس بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مط السعادة مصر ، ط١ ، ١٩٤٩م : ٥ / ٧٤.

صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي قال : رأيت البحتري هاهنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق ، يجتاز بنا الجامع من هذا الباب، وأومأ إلى جنبتي المسجد، يمدح أصحاب البصل والباذنجان، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه، ثم كان منه ما كان " [٥٥].

وقد بدأت نباهته فى الشعر بعد اتصاله بأبي تمام ، ثم قصد بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى خلافة الواثق ، وامتدح وزيره ابن الزيات ، كما مدح الحسن بن وهب ، وامتدح غيرهما من القواد والأمراء ، وبعد أن بويع للمتوكل بالخلافة اختص البحترى شعره بخدمته وخدمة وزيره الفتح بن خاقان حتى قتلا معا ، فحزن البحترى عليهما ، وعاد إلى منبج مرة أخرى ، ثم اتصل بالمعتز ومدحه فى شعره ، وأخذ يتنقل بين العراق والشام حتى أواخر خلافة المعتمد ، ثم استقر بمنبج فى خلافة المعتضد حتى وفاته .

ومن صفاته أنه كان شديد الغرور بشعره ، كثير الاعتداد بنفسه ، وقد وصفه الأصفهانى بأنه " كان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة وأبخلهم على كل شيء ، وكان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعا ، فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقترا ، ويقول : كلا أجاع الله أكبادكما وأعرى أجلادكما وأطال إجهادكما " .[٥٦]

على أن رواية الأصفهانى تستحق منا أن نتوقف عندها قليلا بشيء من التحفظ ، فكيف يكون البحتري وسخا قذرا وقد كان نديم الخلفاء والأمراء وجليسهم ؟ وكيف يكون بهذا البخل وقد كون ثروة عظيمة من خلال شعره فامتلك الضياع والقصور ، كما كان صاحب لهو وطرب .

---

[٥٥] نفسه : ٥ / ٧٥ .

[٥٦] الأغانى : ٢١/٣٥ .

كان البحترى من أكثر شعراء عصره محافظة على الديباجة العربية القديمة ، فقد عمل على إحياء الشعر العربي القديم وإعادة متانته ، وجزالة ألفاظه وصوره ، الأمر الذي دفع كثيراً من النقاد القدامى الذين ينظرون إلى القديم نظرة إكبار وتقديس ، إلى الإشادة بمنزلة البحتري الشعرية ، فوضعوه ضمن طبقة فحول شعراء العربية ، فهذا أبو الفرج الأصفهاني يقول عنه في كتابه الأغاني : " شاعر فاضل فصيح حسن المذهب ، نقي الكلام ، مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء " . [٥٧]

كما وصف الباقلاني إعجابه بالبحتري أيما إعجاب ، فنراه يفضله لديباجة شعره على كل شعراء عصره يقول : " وإن كنا نفضل البحتري على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه ، نقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، وقلة تعقد قوله "[٥٨] وترتفع مكانة البحتري عند ابن سنان الخفاجي فوق جميع الشعراء السابقين له ، والذين هم في عصره ، يقول : " هذا على أنني لم أعرف قديماً ولا حديثاً أحسن سبكاً من أبي عبادة ، ولا أحذق في اختيار الألفاظ وتهذيب المعاني "[٥٩] .

---

[٥٧] نفسه : ٢١ / ٣١.

[٥٨] إعجاز القرآن : للباقلاني تحقيق السيد محمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، د. ت ، ٣٦٩ – ٣٧٠.

[٥٩] سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد علي صبيح ، مصر ، ١٩٥٣ م : ٧٧ .

تحليل القصيدة

هذه القصيدة: " صورةٌ رائعةٌ من صور الصراع النفسيّ من أجل الحياة ، استطاع فيها البحتري –على رغم حداثة سنّه حين قال هذه القصيدة– أن يوفّق بين تنسيق أجزائها، واستطاع كذلك أن يعبّر عن أحاسيسه الباطنيّة بما يكشف عن نزعته الفنيّة التي أخذت في النمو بعد ذلك، كما استطاع أن يدلّ على لمّاحيّته الخاطفة التي تبدو في كثيرٍ من شعره، وذلك في قوله حين أطلق سهمه على الذئب فأصاب قلبه، فكان سريع اللمح حين قال –في صدق تعبير– معناه الذي يصوّر ما في أعماق القلوب من نوازع متضاربةٍ بقوله: "بحيث يكون اللبُّ والرعب والحقد" (٦٠).

فيبلغ التعبير الانفعالي مداه، وذلك من خلال الاتّحاد الكامل بين الشاعر والذئب ، فيصبح الذئب من ثمّ رمزًا لذات الشاعر، وما مشاعره وخواطره إلاّ مشاعر الشاعر نفسه وخواطره ، يقول الصيرفي: "وثمة صورة أخرى استمدّ الشاعر فيها معانيها من أعماق نفسه، وطابَقَ فيها بين أحاسيسه الظاهرة والباطنة ، وهي قصيدته في وصف الذئب الذي لقيه في طريقه وهو يشقّ البادية سعيًا وراء الرزق، ولعلها هي أول خطوطه في هذا اللون، ففي هذه القصيدة يطابق بينه وبين الذئب، كلاهما يضرب في مجال الصحراء،

---

(٦٠) ديوان البحتري ، مقدمة المحقّق : ١٩/١.

وكلاهما جائعٌ، عوامل الشر وعوامل الخوف تنتاب كلاً منهما، وغريزة حبّ البقاء تستولي على كلٍّ منهما بالصورة التي تتفق مع لون دفاعه".[٦١]

حيث تتمحور هذه القصيدة حول شعورين متناقضين : شعور الانخذال والقهر وشعور التفاؤل والتصميم ، ويقوم بين هذين الشعورين صراعٌ حادٌّ في ذات الشاعر، وما الصراع الدائر بين الشاعر والذئب إلاّ صورة لهذا الصراع الداخلي ، وبالتالي فالقصيدة تتضمن لوحتين ؛ كالتالى :

اللوحة الأولى : وتتضمن الأبيات (١ : ١٨) :

يبدأ الشاعر قصيدته تحت وطأة الإحساس بفراق الأحبة بالحديث عن همومه وأحزانه، فيمزج النسيب بالفخر والغضب، والألم بالفرح والحب ، حيث تتنازعه حالتان : إحداهما إحساسٌ بالمرارة جسّده عبر تجريده أحبّته من (الوفاء والعهد) ، والآخر أملٌ يملؤه بتراجعهم عن ذلك ، ويعبِّر عنه الاستفهام (أما لكم) .

ويتحوَّل الشاعر إلى خطاب المكان ، حيث لم يعد يرمز للحياة (دار) ،

---

(٦١) ديوان البحتري ١٩/١، مقدمة المحقّق. وانظر أيقونات الذات المتحولة : قراءة جديدة فى نص " صدئت نفسي " : قرشى دندراوى ، دار أثيل ، قنا ، ١٩٩٨م ، ص٢، حيث يقول قرشى دندراوى : " يجيئنى البحترى منشدا قصيدته " سلام عليكم لا وفاء ولا عهد " ، فأقول أو يقول بعض الذى يسكننا : ما أروع هذه الدالية التى أنشدتها فى حداثة سنك تصف فيها نفسك والذئب ، وكلاكما يضرب فى مجاهل الصحراء .....إلخ ، فيجيب البحترى : أويظن أن أبناء القرن الثالث الهجرى كانوا يستشرفونها قصيدة وصفية فى ذئب قابلته وقتلته واتخذته طعاما شهيا ، وقد قلت فى صدرها :

فَقُلْ لِبَني الضَّحّاكِ: مَهْلًا، فإنّني أنا الأُقْعُوَانُ الصِّلُّ والضَّيغَمُ الوَرْدُ .

وإنَّما تحوَّل إلى أطلالٍ بعد رحيل أهله عنه ، ، والشاعر يستخدم الدعاء بالسقيا للربع ، لكنَّه – فى الوقت ذاته – يؤكد على شدة تمسكه بحبِّه ، ولهذا يأتى الاستفهام بعد ذلك معبِّرًا عن رغبةٍ فى معرفة مصير الأحبة .

والشاعر عندما يتجاوز الأطلال ليخاطب الدار مباشرةً، وكأنَّها عادت إلى ما كانت عليه؛ لكى يبثَّها معاناته التى تمتزج بالعتاب مؤكدًا على إطالة حبِّه ، حيث الاستعداد للتضحية بالذات (بنفسى) ، رغم خيبة الأمل (وإن لم يكن منه وصالٌ) .

ثم يختصر الشاعر طبيعة علاقته بأحبته ، عبر تصوير علاقته بأحدهم عندما ينسب الفعل (شطَّت) إلى النوى ، فإن ذلك يعد محاولةً منه لتجاوز الشعور بهجر حبيبه له من خلال الإيحاء بأنَّ النوى كان قهريًّا ، ويأتى الاستفهام بتقريريته ليكشف عن رؤيةٍ تشاؤميةٍ تتملك الشاعر ، إذ يرى أن علاقاته تنتهي بالبعد والانفصال ، وكأنَّ ذلك أمرٌ حتميٌّ ، وهذا انعكاسٌ لتجربته مع الحب .

وتشكِّل مفردة (البعد) التى أنهى بها الشاعر هذا المقطع مدخلًا لقراءة هذه القصيدة ، إذ تلقى بظلالها على أجزاء النص الأخرى فتتحدَّد من خلالها العلاقات التى يقوم الشاعر ببنائها ، فإذا كانت هذه المفردة قد احتوت المقدمة عبر عددٍ من المفردات التى تتلاقى معها فى الحقل الدلالى (الهجر ، البين

، النوى ، شط) فإنَّ أثرها امتد إلى مختلف مقاطع القصيدة ، حيث شكلت مركزا تلتف حوله دلالات المقاطع الأخرى .

وينتقل البحتري إلى ذكر صحراء الغوير التى ينبغى على الرسول أن يقطعها للوصول إلى هدفه ، ثم يبدأ فى الحديث عن وجود خللٍ فى العلاقة بين الشاعر وبين بنى الضحاك ، على الرغم من صلة القرابة التى تستدعى الرعاية ، حيث تمثل الخؤولة مصدرًا للأمان ، لكنَّه يبدى صلابته وقوته من خلال التهديد والتحدى إذ يرسم الشاعر خلالها لذاته صورة طابعها القوة والعنفوان ، يظهر ذلك فى الأبيات من خلال الألفاظ التى أتى بها الشاعر (الأقعوان الصل ، الضيغم الورد ، الردى ، نصل السيف) ، وهذه االصورة بعيدةٌ تمامًا عن تصور الآخرين له حيث يتسم بالاستخفاف والتهميش (وإن كان خرقًا ما يحلُّ له عقد) .

ثم يواصل الشاعر تمجيد ذاته ، وإعلان قدرته على مواجهة أعدائه ، و التأكيد على كثرة أعدائه الذين يتمنون موته إذ يتجاوزون بنى الضحاك ، وهو يؤكد- بعد ذلك- على أنَّ قدرته على الصمود فى مواجهتهم تقف خلف عدائهم له ، ويبدو الحديث عن الحرب- فى هذا السياق - حديثًا رمزيًّا يعلن من خلاله تحديه لخصومه .

و ينتقل الشاعر إلى الحديث عن رحلته التى يسعى من خلالها إلى

تغيير واقعه ، ويقوم الشاعر باستدعاء صورة المرأة مرةً أخرى ، حيث يبثُّ فى الأبيات مشاعر الخوف والقلق والتوتر والحزن لإثبات خطورة الرحلة التى يقدم عليها ، ثم ينطلق الشاعر من هذا الموقف إلى موقفٍ مضادٍّ لذلك ، عبر الدفاع عن الذات لا بالافتخار بها فحسب ، وإنَّما من خلال التأكيد على تصميمها على الرحيل باعتباره وسيلةً لتغيير الواقع ، حيث " اجتمعت نوائب الزمان على الشاعر، فبات وحيدًا منفردًا، مثله مثل الذئب في الصحراء الذي سينتهي إلى وصفه فيما بعد، فقد خانه الأحباب وهجروه ونكثوا وعودهم ويقابل هذا الموقفَ من الحبيب موقف مماثِل من الأصدقاء، فهم أيضًا هجروه وعادوه، بل تمنّوا موته " (٦٢).

– اللوحة الثانية : وتتضمن الأبيات (١٩ : نهاية النص) :

ويبدأ الشاعر هذه اللوحة بحديثه عن سراه عبر الصحراء ليلًا وكأنَّه اللص ، " وصورة الليل هنا تأتي لتكمّل الإطار الطبيعي للّوحة الحزينة التي يرسمها الشاعر" (٦٣) إذ تكشف الأبيات عن علاقة طويلة بين الشاعر وهذا العالم الوحشى ، أصبح خلالها مألوفًا لدى كائناته ، ثم نقف إزاء مشهد يتم عبر مواجهة شرسة طرفاها الشاعر والذئب ، ويستهلها الشاعر من خلال الأبيات السابقة برسم أبعاد شخصية الذئب / العدو ، إذ يسهم التصوير

---

(٦٢) الصورة الفنية في شعر الطائيين : ص٦٩ .

(٦٣) الصورة الفنية في شعر الطائيين : ص٧٠ .

الشعرى فى تحقيق ذلك . فتمعن الصور فى تجسيد حالة الجوع التى تتملك الذئب ، فقد انعكست على جسده تارة ، " وهو ذئب أغبر اللون برزت عِظامه من شدة الهزال والجوع، فلم يبقَ منه إلاّ العظم والروح والجِلد. وقد راح يُصوِّت بأسنان صلبة معوجة من شدة الجوع، كمن أصابه القرّ فارتعدت فرائصه. وله ذنبٌ طويل يسحبه خلفه، أما ظهره فقد انحنى واعوجّ إشارة إلى الهموم والتجارب الكثيرة التي مرّ بها ويعاني منها " [٦٤]. وعلى فعله تارة أخرى، و" تتعمق الصفات المشتركة بين الشاعر والذئب من خلال الصورة الأيقونية التى رسمها الشاعر للذئب معبرًا بها عن نفسه، فالذئب هزيل الجسم يتضور جوعًا، قليل الزاد على الرغم مما اتسم به جنس الذئب من قوة وضراوة ، لكن هذا الذئب قد أعياه حاله الهزيل عن بلوغ مرامه فى الصيد ، وكذلك الشاعر"[٦٥].

والبحترى ينفى عن ذاته المبادرة بالعدوان ، " فالذئب هو الذى يتحرك للهجوم عليه ، على الرغم من أن كليهما يعانيان الظروف ذاتها (وبى من شدة الجوع ما به) ، وهو سلوك كان حاضرا فى علاقته بأخواله (متى هجتموه) ، فموقفه ليس إلا ردة فعلٍ يرفض الصمت إزاءها ، ويأتى استدعاء المكان (ببيداء) فى هذا البيت ليؤكد على حتمية المواجهة ، إذ يصبح الخيار الآخر أمام الطرفين الموت جوعًا ، وهذا ما تكشف عنه الجملة المنفية (لم

---

(٦٤) ديوان البحترى : ٢/٧٤٢ .

(٦٥) أزمة الذات الشعرية : ص٣٥٩ .

تحسس بها عيشة رغد) ، فإن هذا الواقع المأساوى لطرفى هذه المواجهة أحالهما إلى كائنين متشابهين لا يختلفان " [٦٦].

إنَّ الشاعر أصبح بعيدًا عن إنسانيَّته ، حيث تقمصه السلوك المتوحش ، فنحن بإزاء ذئبين كاسرين تتملكهما رغبة كل منهما فى القضاء على الآخر ، ويتحول النص الشعرى بعد ذلك إلى سرد تفصيلى لأحداث المواجهة بين الشاعر والذئب ، حيث يتنامى هذا المشهد عبر تتابع الأفعال التى تعطى إيقاعا سريعا له .

فالذئب قبل هجومه أراد أن يبث الرعب فى نفس خصمه عبر الصوت ، فأطلق عواءه الذى ينبىء بحضوره ، وأخذ ينتظر ردة فعل الآخر ، وربما كان واثقًا من فزع خصمه ، إذ أنَّ موقع الصراع على ساحته ، وقد جاء الرد مفاجئا للذئب ، ومعبرًا عن استعداد الشاعر ولا مبالاته ، حيث واجه صوت الذئب بصوته ، وهذا الفعل كان كافيا لإثارة الذئب ليبدأ انقضاضًا سريعًا للقضاء على خصمه (فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد) .

ثم كانت ردة فعل الشاعر إذ ليس هناك فرصة للتفكير أو التردد فقد سدد إليه سهمًا سريعًا ، وهذا ما يوحى به تشبيه بالريح (خرقاء) ويدل عليه الفعل (ينقض) ، وقد كان الشاعر يتوقع أن تكون الطعنة باعثًا للذئب

---

[٦٦] الرحيل عن دائرة البعد : عبدالله محمد العضيبي ، مجلة جامعة أم القرى ، ج١٥ – ع٢٦ ، صفر ١٤٢٤ . ص٩٦٩ .

على التراجع ، غير أنها كانت على النقيض من ذلك ، إذ منحته المزيد من التصميم على المواجهة (فما ازداد إلا جرأةً وصرامةً) ، وأدرك الشاعر جديَّة رغبته فى القضاء عليه ، وعدم خوفه ، فقد كان الذئب أمام خيارين : إمَّا الموت جوعا ، وهذا أمرٌ حتميٌّ إن لم يجد الذئب بديلًا للشاعر ، أو الموت قتلًا على يد الخصم ، وهذا الموت يمتزج بأمل الانتصار على خصمه وإشباع جوعه ؛ ولهذا انتصر الخيار الثانى .

والبحتري لا يريد الإشادة بقدرته على التسديد ، وإنَّما التأكيد على إصابته الذئب فى مقتله ، وتصوير الموت بالمنهل يأتى متناسبًا مع ذلك الاندفاع من الذئب للنيل من الشاعر رغم إدراكه ما ينتظره من الموت ، إذ يوهم ذلك بشدة ظمأه إليه ، وأن الموت أطفأ هذا الظمأ ، وهذان البيتان يكشفان عن ذروة ما وصل إليه الشاعر / الإنسان من التوحش ، حيث عمد إلى الأكل من لحم الذئب ، لكنه اكتفى بالقليل من اللحم . على شدة جوعه . وانصرف عنه مزهوا بانتصاره عليه .

و يظهر التلبس بوضوح حيث استخدام الشاعر ضمير المتكلمين (نا)، وفي هذا " ما لا يخفى على أحد من دلالة على الامتزاج التام بين الطرفين: الشاعر والذئب. كما في هذا أيضًا، حفاظ على ذاتية كلٌّ منهما، فلكلٌّ منهما تفرّده الذاتي. وربما كان في هذا الامتزاج بين الطرفين مع المحافظة على التفرّد، تعبير أبلغ وبيان أعمق. إنهما مشتركان في الحكم الواقع عليهما، ومن

خلال هذا الاشتراك يوحي الشاعر بامتزاجه المتقدم بالذئب " [٦٧]، فالذات تراوغ وتختفى وراء قناع ضمير المتكلم ، ولا سيما حينما ترى فى الذئب الذى أصبح إياها فى كثير من أحوالها ، ولا سيَّما تلك التى تجمع بين الأصل والصورة فى المرآة الشعرية ، " فعواء الذئب يعمق فى ذات الشاعر أسى إنسانية ، وإذا كان الذئب يعوى فإن الشاعر يقابل هذا العواء بالصراخ يشكو وحدته وعزلته فى هذه الحياة ، إذ اختلط الشاعر لنفسه طريق حياة مغايرًا لنمط حياة قبيلته ومجتمعه سواء أكان مجبرًا على ذلك لسوء علاقته مع أبناء مجتمعه، أم راغبًا فى نمط هذا العيش لأنه يلبى رغباته، وهذا النمط حدد له- علم بذلك أم لم يعلم- معالم حاضره ومستقبله ، فها هو يقطع منفردًا واديًا مقفرًا لا يلتقى فيه إلا الذئب فيخلع عليه صفاته الخاصة" [٦٨].

إنَّ هذه الأبيات بما تعبر عنه من رؤيةٍ تشاؤميةٍ للعالم تصور مأساوية الواقع الذى يحياه الشاعر ، فهذا التوحش الذى صوره فى مشهد الذئب ليس إلا نتاج جور الليالي ، والجور يمثل تلك اللحظة التى تكون فيها العدالة بعيدة عن مسارها ، وهو ما يثير تعجب الشاعر ؛ إذ إن الكريم . وهو ما يرمز به الشاعر إلى نفسه . يعانى من ذلك الجور ، بينما ينال الجبان اللئيم منه ما يريد ، وفى ظل هذا الواقع يصبح الرحيل . على الرغم من كونه يفصله عن

---

(٦٧) الصورة الفنية فى شعر الطائيين : ص ٧١ .

(٦٨)أزمة الذات الشعرية : مرجع سابق ، ص٣٥٩.

أحبته . أمرا حتميا إذ أنه يشكل محاولة للخروج من هذا الواقع المظلم .

وينهى الشاعر الأبيات بالحديث عن هدف الذات فقد " وصل هنا إلى غاية رحلته وهو الوصول إلى الغنى ، وهو عندما يصف نفسه بالمحمود ، فإنما كان ذلك باعتباره يعكس اختلافًا فى نظرة الآخرين إليه ، ونهاية التوتر فى علاقتهم به ، حيث يصبح موضع مديحهم ، وهو ما يتناقض مع موقفهم السابق منه ، أما إن مات فإن عزاءه أنه حاول تغيير واقعه الذى يرفض الاستمرار فيه " (٦٩).

فالقصيدة كما يذهب وحيد صبحى تتمحور هذه القصيدة حول شعورين متناقضين: شعور الانخذال والقهر وشعور التفاؤل والتصميم. ويقوم بين هذين الشعورين صراع حاد في ذات الشاعر، وما الصراع الدائر بين الشاعر والذئب إلاّ صورة لهذا الصراع الداخلي(٧٠) ، وبالتالى تقدم رؤيتين متعارضتين نجح الشاعر من خلال اعتماده تلبيس الذات بالآخر الحيوان في إبرازهما معا؛ فإن حالة التوحد مع الذئب فى طبيعة العيش تجسد غربة الشاعر ووحدته ،" إذ يمثل الذئب رمزا من رموز القوة والمعاناة فى آن واحد ؛ قوة فى التصدى لمصاعب الحياة والبحث عن القوت والطعام ، ومعاناة الحياة الفردية ، من ضراوة العيش ، ووحشة الصحارى والوديان وما يلاقيه من منغصات سواء من

---

(٦٩) الرحيل عن دائرة البعد : ص ٩٧٣ .

(٧٠) الصورة الفنية فى شعر الطائيين : ص ٧٢ .

الطبيعة أو من بنى جنسه ، وقد اشتركت هذه الخصائص بين الشاعر والذئب وخاصة التفرد وعدم التواصل مع الآخر (فإذا جرح الذئب فإن الذئاب نفسها تأكله) ، فالذئب تحول بدوره إلى مرآة للذات الشاعرة فى منطقة التقمص " . (٧١)

إنَّ مثل هذا المذهب الجمالى فى وصف حالة الذئب والشاعر،" يسقط فيه الشاعر نفحات من روحه وفكره فى لحظات التجلى والكشف ، تسفر عنه الظاهرة الكلامية فى حال من الإنسجام مع الذات والأشياء من حوله وسعيه لتحديد نمط علاقته مع هذه الأشياء فى الطبيعة ، أو كما تنعكس هى فى النفس وتتجلبب برداء الفردانية والذاتية ، وعلى خلفية صدق التجربة وفطريتها وعلى ما فيها من بساطة وسذاجة بريئة، ذلك لأن هذه التجربة بهذا المفهوم ، وإن لم تنشأ عن نظرة فلسفية للأمور فهى ثمرة تفاعل داخلى فى رحم النفس العربية بين الذات والأشياء" (٧٢) .

---

(٧١)أزمة الذات الشعرية : ص٣٥٨-٣٥٩

(٧٢)السابق : ص٣٦٠ .

٥ – قصيدة (الحمى) للمتنبي :

مَلُومُكُمَـــا يَجِـــلُّ عَـــنِ المَـــلامِ وَوَقْـــعُ فَعَالِـــهِ فَـــوْقَ الكَـــلامِ(٧٣)

ذَرَانِـــي وَالفَـــلاةَ بِـــلا دَلِيـــلِ وَوَجْهِـــي وَالهَجِيـــرَ بِـــلا لِثَـــامِ(٧٤)

فَـــإِنِّي أَسْـــتَرِيحُ بِـــذِي وَهَـــذَا وَأَتْعَـــبُ بِالإِنَاخَـــةِ وَالمُقَـــامِ(٧٥)

عُيُـــونُ رَوَاحِلِـــي إِنْ حِـــرْتُ عَينِـــي وَكُـــلُّ بُغَـــامِ رَازِحَـــةٍ بُغَـــامِي(٧٦)

فَقَـــدْ أَرِدُ المِيَـــاهَ بِغَيْـــرِ هَـــادٍ سِـــوَى عَـــدْوِي لَهَـــا بَـــرْقَ الغَمَـــامِ(٧٧)

يُـــذِمُّ لِمُهْجَتِـــي رَيِّـــي وَسَـــقْيِي إِذَا احْتَـــاجَ الوَحِيـــدُ إِلَـــى الـــذِّمَامِ(٧٨)

وَلا أُمْسِـــي لأَهْـــلِ البُخْـــلِ ضَـــيْفا وَلَـــيسَ قِـــرَى سِـــوَى مُـــخِّ النَّعَـــامِ

وَلَمَّـــا صَـــارَ وُدّ النَّـــاسِ خِبّـــاً جَزَيْـــتُ علـــى ابْتِســـامٍ بِابْتِسَـــامِ (٧٩)

وَصِـــرْتُ أَشُـــكُّ فِـــيمَنْ أَصْـــطَفِيهِ لِعِلْمِـــي أَنَّـــهُ بَعْـــضُ الأَنَـــامِ(٨٠)

---

(٧٣) ملومكما : يَعْنِي نَفسه ، وقع الفعل: كونه وتأثيره .

(٧٤) ذراني : اتركاني ، والفلاة : الأَرْض الْبَعِيدَة عَن المَاء ، والهجير : شدَّة الْحر ، واللثام: مَا يستر بِهِ الْوَجْه .

(٧٥) بذي وهذا : بالفلاة والهجير ، الإناخة : النُّزُول وَالْمقَام .

(٧٦) حرت : تحيرت ، والبغام صَوت النَّاقَة للتعب : بغمت تبغم بِالْكَسْرِ وَهُوَ صَوت لَا يفصح بِهِ ، والرازح من الْإِبِل الْهَالِك هزالًا : وَقد رزحت النَّاقَة ترزح رزوحا ورزاحا سَقَطت من الإعياء.

(٧٧)عدي لها برق الغمام : قَالَ ابْن الْأَعرَابِي فِي النَّوَادِر الْعَرَب كَانُوا إِذا لَاحَ الْبَرْق عدوا سبعين برقة فَإِذا كملت وثقوا بِأَنَّهُ برق ماطر فرحلوا يطْلبُونَ مَوضِع الْغَيْث .

(٧٨) الذمام : الْعَهْد.

(٧٩)الخب : الْمَكْر والخداع ، والود الْحبّ والصداقة.

(٨٠) اصطفيه : أختاره صديقًا وأخًا لي ، الأنام : الناس والخلق .

يُحِــبّ العَــاقِلُونَ علــى التّصَــافي   وَحُــبّ الجَــاهِلِينَ علــى الوَسَــامِ[81]

وَآنَــفُ مِــنْ أخــي لأبــي وَأُمّــي   إذا مَــا لــم أجِــدْهُ مِــنَ الكِــرامِ[82]

أرَى الأجْــدادَ تَغْلِبُهَــا كَثيــراً   علــى الأوْلادِ أخْــلاقُ اللّئَــامِ

وَلَسْــتُ بقَــانِعٍ مِــن كــلّ فَضْــلٍ   بــأنْ أُعْــزَى إلــى جَــدٍّ هُمَــامِ[83]

عَجِبْــتُ لمَــنْ لَــهُ قَــدٌّ وَحَــدٌّ   وَيَنْبُــو نَبْــوَةَ القَضِــمِ الكَهَــامِ[84]

وَمَــنْ يَجِــدُ الطّرِيــقَ إلــى المَعَــالي   فَــلا يَــذَرُ المَطــيَّ بِــلا سَــنَامِ

وَلــم أرَ فــي عُيُــوبِ النّــاسِ شَــيْئاً   كَــنَقصِ القَــادِرِينَ علــى التّمَــامِ[85]

أقَمْــتُ بــأرْضِ مِصــرَ فَــلا وَرَائــي   تَخُــبُّ بــيَ الرِّكَــابُ وَلا أمَــامي

وَمَلّنِــيَ الفِــرَاشُ وَكَــانَ جَنبِــي   يَمَــلُّ لِقَــاءَهُ فــي كُــلّ عَــامِ

قَليــلٌ عَائِــدي سَــقِمٌ فُــؤادي   كَثِيــرٌ حَاسِــدي صَــعْبٌ مَرَامــي[86]

عَليــلُ الجِســمِ مُمْتَنِــعُ القِيَــامِ   شَــديدُ السُّــكْرِ مِــنْ غَيــرِ المُــدامِ[87]

وَزَائِرَتِــي كَــأنّ بِهَــا حَيَــاءً   فَلَيــسَ تَــزُورُ إلاّ فــي الظّــلامِ

---

(٨١)التصافي : صفاء الود ، الوسام : الوسام والوسامة الُحسن وسم يوسم وسامة ووساما.

(٨٢) آنف : أستنكف وأبغض

(٨٣) أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ : أنسب إلَى جد فَاضل.

(٨٤) القضم : السَّيْفِ المفلل ، والكهام : الَّذِي لَا يقطع .

(٨٥) التمام : الكمال .

(٨٦) سقم : مريض مهموم ، مرامي : مطلبي ومرادي .

(٨٧) المدام : الخمر .

بَـــدَلْتُ لهَـــا المَطَـــارِفَ وَالحَشَـــايَا فَعَافَتْهَـــا وَبَاتَـــتْ فِـــي عِظَـــامي[٨٨]

يَضِـــيقُ الجِلْـــدُ عَـــنْ نَفْسِـــي وَعَنهـــا فَتُوسِـــعُهُ بِـــأَنْوَاعِ السّـــقَامِ

كَـــأَنّ الصّـــبْحَ يَطرُدُهـــا فَتَجـــرِي مَـــدامِعُهَا بِأَرْبَعَـــةٍ سِـــجَامِ[٨٩]

أُرَاقِـــبُ وَقْتَهَـــا مِـــنْ غَيـــرِ شَـــوْقٍ مُرَاقَبَـــةَ المَشُـــوقِ المُسْـــتَهَامِ

وَيَصْـــدُقُ وَعْـــدُهَا وَالصّـــدْقُ شَـــرٌّ إِذَا أَلْقَـــاكَ فِـــي الكُـــرَبِ العِظَـــامِ

أَبِنْـــتَ الـــدّهْرِ عِنْـــدِي كُـــلُّ بِنْـــتٍ فَكَيْـــفَ وَصَـــلْتِ أَنْـــتِ مِـــنَ الزّحَـــامِ[٩٠]

جَرَحْـــتِ مُجَرَّحـــاً لَـــم يَبْـــقَ فِيـــهِ مَكَـــانٌ لِلسّـــيُوفِ وَلا السّـــهَامِ

أَلا يَـــا لَيْـــتَ شِـــعْرَ يَـــدِي أَتُمْسِـــي تَصَـــرَّفُ فِـــي عِنَـــانٍ أَوْ زِمَـــامِ[٩١]

وَهَـــلْ أَزْمِـــي هَـــوَايَ بِرَاقِصَـــاتٍ مُحَـــلاّةِ المَقَـــاوِدِ بِاللُّغَـــامِ[٩٢]

فَرُبّتَمَـــا شَـــفَيْتُ غَلِيـــلَ صَـــدْرِي بِسَـــيرٍ أَوْ قَنَـــاةٍ أَوْ حُسَـــامِ[٩٣]

وَضَـــاقَت خُطَّـــةٌ فَخَلَصْـــتُ مِنهَـــا خَـــلاصَ الخَمْـــرِ مِـــن نَسْـــجِ الفِـــدَامِ[٩٤]

---

(٨٨)المطارف جمع مطرف وَهُوَ الَّذِي فِي جنبه علمَان والحشايا جمع حشية وَهُوَ مَا حشى من الْفرش مِمَّا يجلس عَلَيْهِ .

(٨٩) بأَرْبَعَة سجام : مجاري الدموع ، سجام : غزيرة سريعة .

(٩٠) بنت الدَّهْر : الْحمى ، وببنات الدَّهْر : شدائده .

(٩١)عِنَانٍ أَوْ زِمَامٍ : الْعنَان للْفرس والزمام لِلْإِبِلِ .

(٩٢) رَاقِصَات : الْإِبِل تسير الرقص وَهُوَ ضرب من الخبب يُقَال رقص الْبَعِير رقصا إِذا خب ، واللغام : زبد أَبيض يخرج من فم الْبَعِير .

(٩٣) الغليل : حر الصَّدْر يكون من عشق وَغَيره ، والحسام : السَّيْف الْقَاطِع .

(٩٤) الْفِدَام : النسج الَّذِي يشد على رَأس الإبريق لتصفية الْخمر .

وَفَارَقْتُ الحَبِيبَ بِلا وَداعٍ ... وَوَدّعْتُ البِلادَ بِلا سَلامِ

يَقُولُ لِيَ الطّبِيبُ أكَلْتَ شَيئاً ... وَداؤكَ في شَرَابِكَ وَالطّعامِ

وَمَا في طِبّهِ أنّي جَوَادٌ ... أضَرّ بجِسْمِهِ طُولُ الجَمَامِ(٩٥)

تَعَوّدَ أنْ يُغَبِّرَ في السّرَايَا ... وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ في قَتَامِ(٩٦)

فأُمْسِكَ لا يُطَالُ لَهُ فيَرْعَى ... وَلا هُوَ في العَليقِ وَلا اللّجَامِ(٩٧)

فإنْ أمرَضْ فما مرِضَ اصْطِباري ... وَإنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمّ اعتزَامي

وَإنْ أسْلَمْ فَمَا أبْقَى وَلَكِنْ ... سَلِمْتُ مِنَ الحِمامِ إلى الحِمامِ(٩٨)

تَمَتّعْ مِنْ سُهَادٍ أوْ رُقَادٍ ... وَلا تَأمُلْ كَرًى تحتَ الرِّجَامِ(٩٩)

فإنّ لِثَالِثِ الحَالَينِ مَعْنًى ... سِوَى مَعنَى انْتِباهِكَ وَالمَنَامِ(١٠٠)

---

(٩٥) الجمام : أن يترك الفرس فلا يركب ، والجمام ضد التّعب.

(٩٦) القتام : الْغُبار ، والسرايا : جمع سَرِيَّة وَهِي الَّتِي تسري إِلَى الْعَدو .

(٩٧) أي أمسك هَذَا الْجواد لَا يرخى لَهُ.

(٩٨) سَلِمْتُ مِنَ الحِمامِ إلى الحِمامِ : سلمت من الْمَوْت بِهَذَا الْمَرَض إِلَى الْمَوْت بِمَرَض وَسبب آخر .

(٩٩) الرجام : القبر ، وَاحِدهَا رجم ، حِجَارَة ضخام تجْعَل على الْقَبْر .

(١٠٠) ثالث الْحَالين : الْمَوْت ، فالْمَوْت غير الْيَقَظَة والرقاد .

تحليل النص :

فارق المتنبي سيف الدولة قاصدًا مصر في ظلّ حكم كافور الإخشيديّ ، وأمل في بديلٍ آخر عن سيف الدولة ، إلّا أنّه سرعان ما يدرك الطامة الكبرى ، إذ شتان ما بين الاثنين " ففي كنف سيف الدولة اتّحدت الذات الواقعيّة للمتنبي بالذات المثاليّة بالشعر المبدع ، فعاش المتنبي واقعه مثالًا عبّر عنه بشعره، وحين قدم إلى كافور فقدَ الواقع المثال ، وكان المتنبي حين يرضي الممدوح يرضي ذاته وتطلعاته المتجسدة في الممدوح، أمّا وقد ترك المتنبي سيف الدولة، فهو حين يرضي الممدوح لا يرضي مُثُلَه العليا، بل يرضي كافور فقط لغايته المعروفة ، وهي الحصول على ولاية وحكم " [١٠١] ، فمدح كافور وأكثر من مديحه له مراتٍ ومراتٍ ، إلّا أنّه لم يظفر منه بشيءٍ ، فصبر واستمرّ في مديحه له ، ثمّ عاتبه بلطفٍ ، ولمّا يأس منه هجاه وهجا مصر كلّها معه .

وكان هجاء المتنبي لكافور والمصريين مقذعًا مؤلمًا، ذلك أنّ نفسه تألمت في مصر، وكبرياؤه تحطمت أمام مليكها، وكان سخطه الثائر ينتظر ساعة الحريّة لينفجر تحطيمًا وتجريحًا [١٠٢]" .

وقد نالت أبا الطيب بمصر حمى، كانت تغشاه إذا أقبل الليل، وتنصرف عنه إذا أقبل النهار بعرق شديدة ، فأصبح يعاني منها ويشكو آلامها إلى جانب معاناته البقاء في مصر حبيس بيته بأمر كافور ، فيبدأ المتنبي قصيدته

---

(١٠١)المتنبي "دراسة نصوص من شعره" : أحمد الطبال ، منشورات المكتبة الحديثة ، طرابلس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م ، ص٥٤.

(١٠٢) أبو الطيب شاعر الطموح والعنفوان : جوزف الهاشم ، دار المفيد ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٦٤ .

مخاطبًا صاحبيه اللذين أنكرا عليه مراده في فراق كافور، والخروج عن مصر إنه أجل من أن يلام لِأَن فعله جَازَ طوق القَوْل فَلَا يدْرك فعله بِالْوَصْفِ وَالْقَوْل وَلِأَنَّهُ لَا مطمع للائم فِيهِ بِأَن يطيعه أَو يخدعه ، ثم يطلب منهما أن يدعاه وركوب الفلاة دون دليل يسترشده، ومواجهة الهجير دون لثام يستعمله، فإنه غني عن الدليل لقوته على اختراق القفر، وعن اللثام لجلده على البرد والحر، ثم يؤكد ما وصف به نفسه من الشدة، وما هو عليه من النفاذ والقوة، فإنه يستريح بالفلاة، والهجير، ويتعب بالسكون والإناخة، ويألم للقرار والإقامة، وقد اعتاد الأسفار، فهو يستريح بها، ولم يعرف الإقامة، فهو يستوحش لها، إنه على مقدرة من الرحلة في القفار النائية، وقوة على التصرف في الصحاري الشاسعة، ونفاذه في الفلوات بمعرفته، فإن حار عند ذلك، فعيون رواحله عينه، وإن أعيي فصوت ركائبه صوته ، كما أنه لا يحتاج إلى ذمام يمتنع به، ولا إلى جوار ينعقد له، وإنما يذم له ربه بفضله، [ويجيره] سيفه بحده، فهو كثير بنفسه، يمتنع بقوته ويأسه .

فهو بما عرف عنه من إباء وشموخ يأبى أن يظلَّ في مصر وهو يحيا ذلَّ كافور الإخشيدي ؛ فيصرُّ على الرحيل مهما كانت وسيلته إلى ذلك ، فهو لا يرضى أن يجد نفسه ضيفا للبخلاء، ولا معولا على الأدنياء ، لقد تبدلت الأمور وساءت أخلاق الناس كثيرًا ، فصار ود الناس خبا لا حقيقة له، وكذبا لا يوثق به حتى صار شاعرنا يشك ويرتاب فيمن يصطفيه ممن وده، ومن سكن إليه ممن أحبه، لخبرته وعلمه أنه واحد من الأنام الذين عم الفساد جملتهم، وملك النفاق عامتهم.

فها هو ذا يرى كرام الأجداد يغلبهم كثيرا على أولادهم، ويسبقهم إلى أعقابهم تخلقهم بأخلاق اللئام؛ لكثرة المتخلقين بها، ورغبتهم في مذاهبهم؛ لما يباشرونه

من اعتياد الناس لها، وليس الأعقاب محمولين على الأجداد والسلف، ولا يتوارث ما قدموهمن الشرف، وإنما يشرف الإنسان بنفسه، ويرفعه ما يتبين من فضله.

إن المتنبي لا يقنع من الشرف والفضل، ويقتصر من الكرم والشرف، على أن يعزى إلى جد جليل قدره، وينسب إلى أب رفيع ذكره، حتى يحرز الشرف، بما يحويه من كرم الخلال، وهو يَعجب ممن يؤتى بسطة في جسمه، وجرأة من نفسه، ويعجز عن النفاذ ويَعجب ممن يجد السبيل إلى معالي الأمور فلا يعمل في ذلك نفسه، ويستنفذ فيه جهده. فهو لم يرَ في عيوب الناس عيبا وعجزا أبلغ من نقص من به القدرة على التمام.

وينتقل المتنبي إلى الشكوى من البقاء بمصر لا يهم عنها برحلة، ولازمها وهي نائية به ، وموحشة له ، وقد مله الفراش لطول العلة، وها هو الآن في مرضه، قليل من يعوده ، سقيم فؤاده ، مستوحش النفس لما صار إليه من الوحدة، كثير من يحسده على النبل، وهو أيضًا إضافة إلى ذلك عليل الجسم، لا يستطيع القيام، متصل السكر، دون خمرٍ من شدة ضعفه واستيلاء المرض عليه .

ثم يشكو مرضه وعلته (الحمى) فهو يشير إلى الحمى التي كانت تناله ويصفا في صورة زائرة له كانت تفتقده، واعتادت زيارته ، وكأن بها حياء فليس تزور إلا مستترة بظلام الليل ، وذلك أشد لألمها، وأبلغ في وجعها؛ لأنها توجب حينئذ السهر، ومع أنه قد أعدَّ لها المطارف الأنيقة، والحشايا الأثيرة، فعافت ذلك كله وكرهته وأرادت عظامه توجعها وتؤلمها، حتى أصبح جلده يضيق عنه وعنها معًا، فتوسعه بأنواع السقم، وضروب الألم،وإذا ما فارقته بعد طول الملازمة كأن الصبح يأتي فيطردها عنه بما تحذره من الرقبة، وهو

لا يجد راحة في ذلك لإنه يراقب وقتها عودتها مرة أخرى ، ويصدق ما تعد به من العودة فلا تخلفه، والصدق في ذلك شر لأنه يقوده إلى ما يكرهه .

ويتأسف على طول المقام بمصر متمنيًا السبيل إلى عدم التضجع في مصر، والتخلص منها بتصريف أزمة الإبل في السير، وأعنة الخيل في العدو، ويتساءل هل تؤول الحال به إلى ما يرغبه ويهواه براقصات من الإبل يحثها في السير، فرب خطة ضيقة، يخلص منها بعزم نافذ، ويخرجت منها خروج الخمر من القدام، فيفارق البلاد ساعتها دون وداع أوسلام .

لقد ظن الطبيب أن سبب علة المتنبي ربما تكون طعامًا أكله أو شرابًا شربه فكفه الطبيب عن الأكل والشرب، وما في علم الطبيب المعالج أنه كالجواد الذي أضر الجمام بجسمه، وبعث عليه أسباب سقمه ، لقد تعود ذلك الجواد أن يثير الغبار في الغارات، ويستعمل الجد في الغزوات، ويخرج من قتام يقطعه، إلى قتام يرهج به ويبعثه، جاهدا لا يفتر، ومعتزما لا يقصر.

لقد وجد المتنبي بغيته في الخيل ، " فتمسك الشاعر بالشكل اللغوى والإبداعى والعامل البدنى (الشجاعة) تماسا مع قيم (الفروسية) لإثبات ذاته واستعادة هويته المستلبة ليتحول من العبودية إلى الحرية ، فاختلق له طريقًا يواصل فيه عملية بناء الذات واستعادة الهوية ، وتغييرها فى حقيقتها وواقعها للتخلص من الازدواجية ، فنال الحرية بفاعلية الجسد، وقوة الكلمة ، وحد السيف فحقق ذاته ووجوده وهويته الجديدة بالقيم والأخلاق العربية الأصيلة" [١٠٣] ، كما عبر الحصان عن صورة الذات الحرة للمتنبي .

---

(١٠٣)الأنا والآخر فى الشعر العربى (عصر ما قبل الإسلام) : شيماء إدريس محمد ، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ،جامعة الموصل ، ٢٠٠٧م ، ص٢٥.

حيث كان المتنبي دائمًا يسعى بصفته ذاتًا إلى" تجاوز حالة الأنا في الواقع، وإلى تحقيق الذات وتأكيدها من خلال الذات الشاعرة ، وذلك في تعاليها على الآخرين وفي ذلك جوهر حريتها كما يرى سارتر حين يقول: "فإذا كنت أريد تأكيد نفسي علي أن أتعالى، وأن أنفي العبودية التي يقلصني إليها غيري"، وهكذا نجد أن الخاصية المهيمنة في شعر المتنبي هي الحضور الصارخ والمكشوف للأنا، حيث تبرز صورة الأنا في حضورٍ مكثفٍ في فضائه الشعريّ، ويتجلى ذلك في صورٍ متعددةٍ " [١٠٤]، حيث يمكن وصف ذات المتنبي الشاعرة القائلة غير وضعها ، أو وضعها لكن خارج سياق القول ، بأنَّها "ذاتٌ ماهويَّةٌ أو رؤيويَّةٌ (منسوبةٌ إلى الرؤية بمعنى الإدراك أو الوعى) ، كونها تقول الرؤية، لا الرؤيا، السلطة ، لا العلاقة، الموقف الجاهز من العالم (فى جزئيته) لا الوضع المفتوح على العالم (فى كلِّيته)، تعاليها على عالم القول ، عزلتها عنه ، أو مراقبتها إيَّاه (رؤيتها إيَّاه من علوٍّ أى من موقعٍ ثابتٍ) لا تمثيلها إيَّاه" [١٠٥] .

---

(١٠٤) الآخر في شعر المتنبي: رولا خالد محمد غانم ، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ٢٠١٠ م .ص ٩ .

(١٠٥)الذات الشاعرة فى شعر الحداثة العربية : ص٢١.

٩- المتنبي يعاتب سيف الدولة :

واحَـرَّ قَلبـاهُ مِمَّـن قَلبُـهُ شَـبِمُ ... وَمَـن بِجِسـمي وَحـالي عِنـدَهُ سَـقَمُ

مـالي أُكَـتِّمُ حُبّـا قَـد بَـرى جَسَـدي ... وَتَـدّعي حُـبَّ سَـيفِ الدَّولَـةِ الأُمَـمُ

إِن كـانَ يَجمَعُنـا حُـبٌّ لِغُرَّتِـهِ ... فَلَيـتَ أَنّـا بِقَـدرِ الحُـبِّ نَقتَسِـمُ

قَـد زُرتُـهُ وَسُـيوفُ الهِنـدِ مُغمَـدَةٌ ... وَقَـد نَظَـرتُ إِلَيـهِ وَالسُّـيوفُ دَمُ

فَكـانَ أَحسَـنَ خَلـقِ اللَهِ كُلِّهِـمِ ... وَكـانَ أَحسَـنَ مـا فـي الأَحسَـنِ الشِّـيَمُ

فَـوتُ العَـدُوِّ الَّـذي يَمَّمتَـهُ ظَفَـرٌ ... فـي طَيِّـهِ أَسَـفٌ فـي طَيِّـهِ نِعَـمُ

قَد نـابَ عَنكَ شَديدُ الخَوفِ وَاصطَنَعَت ... لَـكَ المَهابَـةُ مـالا تَصـنَعُ البُهَمُ

أَلزَمـتَ نَفسَـكَ شَـيئًا لَـيسَ يَلزَمُهـا ... أَن لا يُـوارِيَهُم أَرضٌ وَلا عَلَـمُ

أَنـا الَّـذي نَظَـرَ الأَعمـى إِلـى أَدَبـي ... وَأَسـمَعَت كَلِمـاتي مَـن بِـهِ صَـمَمُ

أَنـامُ مِـلءَ جُفـوني عَـن شَـوارِدِها ... وَيَسـهَرُ الخَلـقُ جَرّاهـا وَيَختَصِـمُ

وَجاهِـلٍ مَـدَّهُ فـي جَهلِـهِ ضَـحِكي ... حَتّـى أَتَتـهُ يَـدٌ فَرّاسَـةٌ وَفَـمُ

إِذا نَظَـرتَ نُيـوبَ اللَيـثِ بـارِزَةً ... فَـلا تَظُـنَّنَّ أَنَّ اللَيـثَ مُبتَسِـمُ

وَمُهجَـةٍ مُهجَتـي مِـن هَـمِّ صـاحِبِها ... أَدرَكتُهـا بِجَـوادٍ ظَهـرُهُ حَـرَمُ

رِجـلاهُ فـي الـرِّكضِ رِجـلٌ وَاليَـدانِ يَـدٌ ... وَفِعلُـهُ مـا تُريـدُ الكَـفُّ وَالقَـدَمُ

وَمُرهَـفٍ سِـرتُ بَـينَ الجَحفَلَـينِ بِـهِ ... حَتّـى ضَـرَبتُ وَمَـوجُ المَـوتِ يَلتَطِمُ

تحليل النص

تبرز الجدلية الحاصلة بين الواقع والمثال في شعر المتنبي بوضوحٍ شديدٍ ؛ حيث تتمثَّل في بعد المسافة بين مرمى طموحه وبين إمكانيَّة تحقيقه ، ويبدو أن المتنبي عندما يأس من تحقيق الأمنيات وبلوغ الآمال بحث عن ذاته التي يتمنى في صورة الآخر ، وقد تمثَّل هذا الآخر في سيف الدولة الحمداني ، الذي أحبه المتنبي ورأى فيه ذاته التي لم تتحقق ، فقد " وجد المتنبي في علي بن حمدان الأمير العربي الذي ينشده، ورأى سيف الدولة في أحمد ابن الحسين فتىً أبيًّا أهلًا للصداقة، وشاعرًا مجيدًا جديرًا بتخليد مآثره، وكان لابدَّ لأخلاق سيف الدولة من شاعرٍ كالمتنبي يشيد بها ويسجل مفاخرها، وقد أراد الله سبحانه لهما هذه الصحبة، إذ ولدا في سنةٍ واحدةٍ، ولم يعش سيف الدولة بعد مقتل المتنبي إلا سنتين . لقد كانا بطلين يتعاونان بل شاعرين يتباريان "[١٠٦] . وكثيرًا ما عبَّر المتنبي عن إعجابه الشديد به [١٠٧] .

فحينما اتَّصل المتنبي بسيف الدولة وحطَّ رحاله عنده، وجد فيه ضالته المنشودة، ووجد فيه مثله الذي يسعى إليه، ورأى فيه طموحه، كما وجد فيه حريَّته وانعتاقه، والتقى عنده مع ذاته لأول مرةٍ ، بعد أن تعرَّض للتَّغرب والسجن، وهكذا كانت علاقة المتنبي بسيف الدولة علاقة تواصلٍ وتوحُّدٍ، تنازل فيها الشاعر عن تقديم نفسه على ممدوحه[١٠٨] ، وبخاصةٍ أنَّ المتنبي قد نشأ في جوٍّ يفتقد جوهر الذات العربية التي يحرص عليها فارسٌ مثله يحمل نفسًا ثائرةً، تتطلع إلى التعالي، وتصبو

---

(١٠٦)ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام : عبد الوهاب عزام ، ص٨٣ .

(١٠٧) ديوان المتنبي : سابق ، ٣/٣٦٢ -٣٦٥.

(١٠٨) قصيدة المديح وتطورها الفني : أيمن عشماوي ، ص٩٤ .

إلى تحقيق ما يتطلع إليه ، من أجل هذا وضع المتنبي نصب عينيه أن يكون شعره غِناءً بهذه الذات المفتقدة؛ نظرًا لأهميتها، وحثًا على استنهاضها [١٠٩] ، و" ذات" الشاعر هنا تذوب فى ممدوحها فلا تشعر بوجودها إلَّا فى وجوده ، ولا ترى نفسها إلَّا من خلال الآخر(الممدوح) ، بل إنَّها لاترى الآخر (المجتمع) إلَّا من خلال الممدوح [١١٠] .

إلَّا أنَّ هذا لا يعني بالضرورة غياب الذات تمامًا ، " فبالرغم من انخراط الذات فى سرد محاسن الممدوح ، والطلب منه ، واعترافها وإقرارها بفضل الممدوح ، وشعورها بالتقصير نحوه فإنَّها لم تنس مكانتها الأدبيَّة ، ولم يغب عن ذهنها لحظةً فضلها على الممدوح ، وسبقها فى مجال الكلمة والإبداع " [١١١] ، فحينما تعرَّضت ذاته للانتقاص سرعان ما هبَّ ثائرًا يدافع عنها بكلِّ ما أوتي من قوةٍ ، فهذه القصيدة آخر قصيده نظمها وهو في كنف سيف الدولة الحمداني قبل أن يرحل عنه . فقد كان المتنبي بما له من مكانه شعرية وبالتالي مركز الصدارة عند سيف الدولة . كان يثير أحقاد وغيرة الكثيرين لذلك ممن يدسون عليه عند سيف الدولة ويبدو أن المتنبي ما عاد يطيق هذه الوضع الذي لم ينل فيه مبتغاة وهو أن يسلمه منصبا يليق بطموحه، وقد أنشد هذه القصيدة في محفل من العرب والعجم في رجب عام ٣٤١ هـ .

ومطلع القصيدة من المطالع الجيدة التي ابتكرها المتنبي وهو من القوة العاطفية وقوة العبارة والسبك وما يجعلها متفردة ، في البيت الأول يبدو انه يتكلم

---

(١٠٩)السابق:ص٧٣ .

(١١٠)الذات وأحوالها فى شعر البهاء زهير : ص ٢٢

(١١١)السابق: ص٢٧

عن العشق والحب الذي يتألم منه كل الناس ، لكنه في البيتين التاليين يفصح عن هذا الحب بأنه لسيف الدولة.

ويسائل نفسه أو يتساءل لماذا يكتم حبه لسيف الدولة، وهذا الكتمان قد تسبب بهذه الآثار النفسية والجسمية، بينما الآخرون يدّعون انهم يحبون سيف الدولة؟ ربما يريد أن يقول أنه لا يريد أن يظهر حبه له علنا، لكي لا يفسر ذلك بالتملق، بينما الآخرون يتملقون علنا ويتكلفون في إظهار حبهم لهم .

وبعد هذه المقدمة التي يؤكد حبه الصادق لسيف الدولة بدأ يمدحه بما يحبه في سيف الدولة من صفات ، أو بما يحب سيف الدولة أن يمتدح به ، أو أنه يشير إلى معركة حدثت وهزم فيها أعداءه وطاردهم .

ثم يقول المتنبي إنني قد عاشرته طويلا ، في حالة السلم وفي الحالة الأخرى فقد نظرت إليه والسيوف دم أي السيوف عليها دم ، وفي الشطر الأول قال زرته والزيارة تكون للضيف والضيافة تعني الكرم والرخاء بينما قال في الشطر الثاني نظرت إليه أي كنت معه في الحرب ، ونظرت إليه دون إرادة منه

وفي الحالتين السلم والحرب كان أحسن خلق الله كلهم وفي هذه مبالغة ، فهو أحسن إنسان في رأي الشاعر وهذا الحسن له عناصر كثيرة من الخلقة والأصل والشجاعة والثراء والسلطة ولكن أحسن هذه الصفات جميعها هي الشيم وهي الأخلاق الحميدة .

وبعد هذا الكلام الجميل والمديح الراقي والوصف لنتائج معركة انتصر فيها سيف الدولة وانهزام أعداءه شر هزيمة ، يبدأ التلميح بما يكنه في قلبه من أسف ، امتدادا لما قاله في الأبيات الثلاث الأولى ، فبعد أن وصف المعركة وبدأ الأمر أن

عدم ملاحقة سيف الدولة لأعدائه وكأنه قد عفا عنهم ، فأنه يمسك بطرف هذا الخيط لكي يقول بما انك عفوت عن أعدائك في المعركة وتركت لهم حرية الفرار وكان ذلك كرما منك فلماذا لا تعفو عني وتتركني أذهب إلى حيث أشاء .

ويتساءه بعد هذا لقد اعتدتك حكما عادلا بين الناس فكيف يكون ذلك عندما يكون الخصم هو الحكم ثم ينكر على سيف الدولة صاحب النظرة الصادقة التي لا تخدعه دائما أن لا تفرق بين المتورم وبين السمين الممتلئ صحة وعافية ، فهو يدعوه كي يفرق بين الشعر الحقيقي وبين الشعر المزيف الذي يمدحه به غيره من الشعراء ، فيقول كيف ينتفع الإنسان بنظره /أو بصيرته إذا كان لا يفرق بين النور والظلمة .

وكما هو المتنبي في كل قصيده لابد له من أن يفتخر بنفسه ويدلك على قدراته ومزاياه فإنه يراها مناسبة بعد أن أوضح بشكل مباشر تميزه الكبير عن غيره فإن الكثير من الجالسين هنا سيعلمون بعدما أقول بأنني خير إنسان وقد كنّى عن ذلك بقوله (خير من يسعى به قدم) أي خير من يمشي على الأرض .

انه الآن يفصل في ميزاته فيقول إن أدبي وشعري وفكري واضح وجلي حتى من هو أعمى (والأعمى كناية عن شخص لا يميز ، ولا يرى الجيد كما أن كلماتي / وهي استعاره تعني القصائد / مدوية حتى أن من به صم فهو يسمعها ، ومن به صمم كناية عن الجاهل أو الأمي الذي لا يقرأ ولا يطالع وليس لديه قدرة على الكتابة ، إن الشاعر يريد أن يقول كيف تنكرون أدبي وشعري وقد عرف بها وتذوقها من لا ذوق عنده ولا بصيرة وسمع من لا يقرأ ولا يطالع ولا يملك ثقافة وعلق أبو العلاء على ذلك بقوله لقد كان يقصدني .

إن الصورة الأولى الذهنية التي رسمها لشخص يبتسم تسامحاً أو سخرية من عدوه ، شاء أن يعطيها بعداً مادياً من خلال صورة الأسد الذي يكشر عن أنيابه فيبدو وكأنه يبتسم، لذلك فهو يحذر أولئك الذين تخدعهم المظاهر ولا يفهمون ما خلف الأشياء الظاهرة ، فالليث حينما يكشر عن أنيابه فأنه لا يبتسم إنما يستعد للانقضاض .

انه دليل على شجاعته في المعارك ، إذ ليس في الفروسية وقهره لأعدائه كأفراد فقط ، بل في المعارك أيضا، ولكي يجمل كل صفاته في بيت واحد يقول أن (الخيل) كناية عن الفروسية (والليل) كناية عن الشجاعة (البيداء)كناية عن الرجولة وتحمل الشظف (السيف) القدرة على المواجهة والقتال (القرطاس والقلم) الثقافة والعلم والأدب.

إذن فهو فارس شجاع ومقاتل متمرس وشاعر ومثقف وأديب ، إن قوله كلمة (تعرفني) تدل على الصداقة والألفة الطويلة والمراس ، كما تشبه هذه بالإنسان الذي يعرف صديقه وصاحبه .

وبعد أن أفتخر بنفسه ولشجاعته وأدبه وقدرته على الاحتمال وتحمل السفر منفرداً ، وبذلك يقول انه قادر على حماية نفسه وانه سيكون معتزا بنفسه وبشعره في كل مكان ، فانه يعلن بعد ذلك أنه قرر الرحيل ولكن دونما تفارقه العاطفة نحو سيف الدولة .

الفصل الثاني

من موضوعات الشعر العباسي

١- الخلافة وموقف الشعراء من خلفاء الدولة العباسيّة :

أدّى اهتمام الخلفاء العباسيين بالشعر والشعراء إلى ازدحام الشعراء على بلاطهم وأبوابهم ، ونيلهم مكانةً مرموقةً من قلوب الخلفاء ومن جيوبهم أيضًا، ويذكر أنه لم يجتمع على باب أحدٍ من الملوك ما اجتمع على باب المأمون والرشيد من الشعراء ، وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يتحكّمون في أموال الخلفاء ويفرطون في الدّالة عليهم ، ويشفّعون فيما لا ترجى الشفاعة فيه، فيفكّون رقاب العناة، ويجيرون من الموت(١١٢) .

ويروى أنّ الرشيد أجاز مروان بن أبي حفصة مرة على قصيدة له خمسة آلاف دينار ، وخلعة وفرسًا من مراكبه، وعشرةً من رقيق الروم ، ويقول السيوطي نقلا عن الجاحظ : " اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره :وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف رحمه الله، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عمُّ أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع" (١١٣) .

أما الشعراء أنفسهم فقد انقسموا فريقين في نظرتهم إلى الخلافة العباسية والخلفاء العباسيين بين مؤيّدٍ لهم وطاعنٍ عليهم ؛ فمن ناحيةٍ نجد شعراء قد نذروا أنفسهم لخدمة الخلفاء العباسيين ومدحهم، والردّ على خصومهم كأبي تمام، ومروان بن أبي حفصة ، والبحتري، وعلي بن الجهم ، ومن ناحيةٍ أخرى نجد شعراء آخرين

---

(١١٢)صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين : ساهرة عبد الحفيظ محمد حمدان ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية – فلسطين ، ٢٠١٠ م ، ص ١٧

(١١٣) تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص٣٢٩ .

يقفون ضدَّ الدولة العباسية ، ويتمثلون أفكارًا معاديةً لخلفائها، كالعلويين الذين كان لهم شعراؤهم ، والمذاهب والأفكار الخارجة عن الدولة التي كان لها شعراءٌ ينظرون لهذه المذاهب والأفكار [١١٤] ، فقد تأثَّرت صورة الخلفاء عندهم بموقفهم من الخلافة العباسية، ونظرًا لتنوع طوائف الشيعة فقد تنوعت مواقفهم بين تأييدٍ، أو مناهضةٍ، أو حياديَّةٍ ، أمَّا شعراء الزهد، فقد انقطعوا عن ملذات الحياة ، وانصرفوا إلى شؤون الآخرة، وتأثرت صورة الخلافة عندهم بموقفهم من الدنيا وزهدهم فيها ، أما شعراء المجون والزندقة، فقد أظهروا التأييد للخلفاء العباسيين بهدف التكسُّب وطلبًا للتستُّر على تجاوزاتهم [١١٥] .

فنجد من هؤلاء الشعراء الذين مدحوا خلفاء بني العباس وأشادوا بهم مروان بن أبي حفصة حيث يقول في إحدى قصائده مادحًا الخليفة المهدي[١١٦]: (كامل)

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيِّ خَيالَها ... بَيضاءُ تُخلِطُ بالحَياءِ دَلالَها

قادَت فُؤادَكَ فَاستَقادَ وَمِثلُها ... قادَ القُلوبَ إلى الصِبا فَأمالَها[١١٧]

وَكَأَنَّما طَرَقَت بِنَفحَةِ رَوضَةٍ ... سَحَّت بِها دِيَمُ الرَبيعِ ظِلالَها[١١٨]

باتَت تُسائِلُ في المَنامِ مُعَرِّسًا ... بالبيدِ أَشعَثَ لا يَمَلُّ سُؤالَها[١١٩]

---

(١١٤) العصر العباسي الأول : شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة السادسة عشرة ، ٢٠٠٤م ، ص٢٩٠ وما بعدها .

(١١٥)صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين : مرجع سابق ، المقدمة .

(١١٦) شعر مروان بن أبي حفصة : جمع وتحقيق : حسين عطوان ، ذخائر العرب ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، د.ت ، ص٩٦ .

(١١٧) استقاد : خضع وانقاد ، الصِّبا :جهل الفتوة واللهو .

(١١٨)النفحة : الدفعة من الريح ، سحَّ : أنهل بغزارة ، الديم : جمع ديمة وهي السحابة .

(١١٩) المعرس : الذي ينزل آخر الليل .

فـــي فِتيَـــةٍ هَجَعـــوا غِـــرارًا بَعـــدَما ... سَـئِموا مُراعَشَـةَ السُّـرى وَمِطالَهـا[١٢٠]

فهو يستهلُّ مديحه للخليفة بمقدمةٍ غزليَّةٍ تقليديَّةٍ تستغرق الأبيات الأولى، ثم ينتقل إلى مديح الخليفة المهدي ، ويصفه بأنَّه أحيا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويمتدح أصله الكريم ، وفي ذلك يقول [١٢١]:

أحيـــا أميـــرُ المُـــؤمِنينَ مُحَمَّـــدٌ ... سُـــنَنَ النَّبِـــيِّ حَرامَهـــا وَحَلالَهـــا[١٢٢]

مَلِـــكٌ تَفَـــرَّعَ نَبعُـــهُ مِـــن هاشِـــمٍ ... مَـــدَّ الإِلـــهُ عَلـــى الأَنـــامِ ظِلالَهـــا

جَبَـــلٌ لِأُمَّتِـــهِ تَلـــوذُ بِرُكنِـــهِ ... رادى جِبـــالَ عَـــدُوِّها فَأَزالَهـــا

حَتّـــى يُفَرِّجهـــا أَغَـــرُّ مُبـــارَكٌ ... أَلفـــى أَبـــاهُ مُفَرِّجـــاً أَمثالَهـــا

ثَبـــتٌ عَلـــى زَلَـــلِ الحَـــوادِثِ راكِـــبٌ ... مِـــن صَـــرفِهِنَّ لِكُـــلِّ حـــالٍ حالَهـــا [١٢٣]

وفي قصيدةٍ أخرى له قالها مادحًا المهدي أيضًا ؛ يؤكد على حقِّ العباسيين في الخلافة ، وأنَّهم أولى المسلمين بها فهم أبناء العمومة وأحقُّ بالوراثة من أبناء البنات " يقصد العلويين " ، فيقول[١٢٤]: (كامل)

طـــافَ الخَيـــالُ وَحَيِّـــهِ بِســـلامِ ... أَنّـــى أَلَـــمَّ وَلَـــيسَ حـــينَ لِمـــامِ

يـــا ابـــنَ الَّـــذي وَرِثَ النَّبِـــيَّ مُحَمَّـــداً ... دونَ الأَقـــارِبِ مِـــن ذَوي الأَرحـــامِ

أَلـــوَحيُ بَـــينَ بَنـــي البَنـــاتِ وَبَيـــنَكُم ... قَطَـــعَ الخِصـــامَ فَـــلاتَ حـــينَ خِصـــامِ

مـــا لِلنِّســـاءِ مَـــعَ الرِجـــالِ فَريضَـــةٌ ... نَزَلَـــت بِـــذَلِكَ ســـورَةُ الأَنعـــامِ

أَنّـــى يَكـــونُ وَلَـــيسَ ذاكَ بِكـــائِنٍ ... لِبَنـــي البَنـــاتِ وِراثَـــةُ الأَعمـــامِ

---

(١٢٠) هجع : نام ، الغرار : النوم القليل ، المراعشة : تحريك الرأس في السير من النوم .

(١٢١)شعرمروان بن أبي حفصة : ص٩٧– ٩٨ .

(١٢٢) حلالها وحرامها : التحليل والتحريم ، فمن سنن النبي تحريم الحرام وتحليل الحلال .

(١٢٣) الثبت : الفارس الشجاع ، الصرف: التغير .

(١٢٤)ديوان مروان بن أبي حفصة : ص١٠٤.

أَلغَـى سِـهامَهُمُ الكِتَـابُ فَحَـاوَلوا أن يَشْـرَعوا فيهـا بغَيـر سِـهامِ
ظَفِـرَت بَنـو سـاقي الحَجـيج بحَقّهـم وَغُـرِرتُمْ بِتَـوَهُّمِ الأَحـلامِ

أمَّا الشاعر زند بن الجون المعروف بأبي دلامة[١٢٥] ؛ فيجمع بين مديح المهدي ورثاء أبي جعفر المنصور ، وذلك عندما تولي المهدي الخلافة بعد وفاة المنصور فيقول مادحًا وراثيًا ، بل يجمع بين المديح والرثاء في كل بيت من الأبيات قائلًا [١٢٦] : (كامل)

عَيْنَـان وَاحِـدةٌ تُـرَى مَسـرُورَةً بِإمَامِهـا جَـذلَى وأُخـرَى تَـذرِفُ
تبكـي وَتَضـحَكُ مَـرَّةً وَيَسُـوؤها مـا أبصَـرَت وَيَسُـرُّها مـا تَعـرِفُ
فَيَسُـوؤها مَـوتُ الخَليفَـةِ مُحرِمـاً ويَسُـرُّها أن قَـامَ هـذا الأَرأَفُ
مـا إن رأيـتُ وَلا سَـمِعتُ كمـا أرَى شَـعراً أرَجِّلُـهُ وآخَـرَ أنتِـفُ
هَلَـكَ الخليفَـةُ يـا لأُمَّـةِ أحمَـدٍ فَأتَـاكُمُ مِـن بَعـدِهِ مَـن يَخلُـفُ
أهـدَى لهـذا اللهُ فَضـلَ خِلافَـةٍ وَلِـذاكَ جَنَّـاتِ النَّعـيم تُزَخـرَفُ
فَـابكُوا لِمَصـرَعِ خَيـرِكُم وَوَلِـيِّكُم واستَشـرِفُوا لِمَقَـامِ ذا وتَشَـرَّفُوا

وقد مدح الشاعر المتشيِّع منصور النمريّ الرشيد على نحوٍّ " نفى فيه الإمامة عن أبناء علي بن أبي طالب وبيَّن أنَّها حقٌّ خالصٌ للعباسيين، وأنَّ العباسيين لا يزالون يطوِّقون رقاب أبناء علي بالمنن وهم يجحدونها، فيثورون، وكثيرًا ما يتلقون

(١٢٥)أبو دُلامة (؟ – ١٦١ هـ / ؟ – ٧٧٧ م) : زند بن الجون الأسدي ، شاعر مطبوع ، كان أبوه عبداً لرجل من أسد وأعتقه، نشأ في الكوفة واتصل بالخلفاء من بني العباس، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه صِلاتِهم، وله في بعضهم مدائح.

(١٢٦)ديوان أبي دلامة : تحقيق إميل بديع يعقوب ، دار الجيل، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ م ، ص٨٢-٨٣ .

ثوراتهم بالعفو على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله، فإنه اكتفى بسجنه، ولم يقتله"(١٢٧) ، ويقول الشاعر في ذلك (١٢٨) : (وافر)

أَميرَ المؤمِنينَ إِلَيكَ خُضنا غِمارَ المَوتِ مِن بَلَدٍ شَطيرِ
بِخوصٍ كالأَهِلَّةِ جانِفاتٍ تَميلُ عَلى السُّرى وَعَلى الهَجيرِ
حَمَلنَ إِلَيكَ آمالاً عِظاماً وَمِثلَ الصَخرِ وَالدُرِّ النَثيرِ
فَقَد وَقَفَ المَديحُ بِمُنتَهاهُ وَغايَتِهِ وَصارَ إِلى المَصيرِ
إِلى مَن لا تُشيرُ إِلى سِواهُ إِذا ذُكِرَ النَدى كَفُّ المُشيرِ

فقد بدأ قصيدته مخاطبًا الخليفة الرشيد مبديًا سعيه إلى لقاء الخليفة والمثول بين يديه ، فهو يحمل معه آمالًا عظيمة إلّا أنَّ ألفاظ المديح وأبياته تعجز عن أن توفي الخليفة قدره العظيم ، ويصف الشاعر كرم الخليفة وعظيم عطائه ، ثم ينتقل إلى الحديث عن فضل الخليفة على أبناء العلويين حيث عفا عنهم وطوّقهم بأفضاله عليهم ، ولا ينسى الحديث عن حقّ العباسيين فى الحكم والخلافة ، وفي ذلك يقول (١٢٩) :

يَدٌ لَكَ في رِقابِ بَني عَلِيٍّ وَمَنٌّ لَيسَ بِالمَنِّ اليَسيرِ
مَنَنتَ عَلى ابنِ عَبدِ اللَهِ يَحيى وَكانَ مِنَ الحُتوفِ عَلى شَفيرِ
لَهُم رَحِمٌ تُصَوِّرُكُم عَلَيهِم وَتَكسِرُ عَنكُمُ حُمَةَ النَكيرِ
فَإِن شَكَروا فَقَد أَنعَمتَ فيهِم وَإِلّا فَالنَدامَةُ لِلكَفورِ
أَلا لِلَّهِ دَرُّ بَني عَلِيٍّ وَزورٍ مِن مَقالَتِهِم كَثيرِ

(١٢٧) العصر العباسي الأول : مرجع سابق ، ص٣١٤ .

(١٢٨)ديوان النمري ، جمع وتحقيق : الطيب العشاش ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دار المعارف للطباعة ، دمشق ١٩٨١م ، ص٨٥.

(١٢٩)ديوان النمري : السابق ، ص٨٧.

يُسَــمّونَ النَبــيّ أبًــا وَيــأبى   مِــنَ الأحـزابِ سَـطرٌ فـي سُـطور
وَإِن قــالوا بَنــو بِنــتٍ فَحَــقٌّ   وَرَدّوا مــا يُناسِــبُ لِلــذكور

فإذا انتقلنا إلى أبي تمام نجده يمدح الخليفة المعتصم مؤكدًا على دوره فى فتح عمورية في بائيته المشهورة قائلًا [١٣٠] : (بسيط)

تَــدْبيرُ مُعْتَصِــمٍ بِاللّــهِ مُنْــتَقِمٍ   للهِ مرتقــبٍ فــي الله مُرتغــبِ
ومُطعَــمِ النَّصــرِ لَــمْ تَكْهَــمْ أَسِــنَّتُهُ   يومًا ولاَ حُجِبتْ عنْ روحِ محتجِبِ[١٣١]
لَـمْ يَغْـزُ قَوْمًـا، ولَـمْ يَنْهَـدْ إلَـى بَلَـدٍ   إلاَّ تقدَّمَــهُ جَــيشٌ مِــن الرُّعــبِ
لَوْ لَمْ يقُدْ جحفلاً، يومَ الوغى ، لغدا   مِنْ نفسِهِ، وحدها، فـي جحفلٍ لجِبِ
رمــى بِــكَ اللهُ بُرْجَيْهــا فهــدَّمها   ولــو رمــى بــكَ غيــرُ اللهِ لــمْ يصِــبِ
مِــنْ بَعْــدِ مــا أشَّــبُوها واثقــينَ بِهَــا   واللهُ مفتــاحُ بــابِ المعقــلِ الأشِــبِ[١٣٢]

يبيِّن أبوتمام أنَّ طبيعة العلاقة بين الخليف والدين مقررةٌ بأحكامٍ : فمن أجل النصر ، يعتمد الخليفة على الله ، على مرسومٍ إلهيٍّ ووحيٍ إلهيٍّ : إنه لا يغزو باسمه الخاص ، بل كي ينتقم لله وللإسلام ؛ ومناقبه تقرِّبه من الله وسوف تدخله الجنة ؛ فمراعاته الله فيما يفعل ورغبته فيما يدنيه من الله ليس سعيًا إلى مكاسب دينويَّةٍ وماديَّةٍ بل سعيًا فى سبيل الله تعالى ، لقد ألف الخليفة النصر ولازمه حتّى أنَّ الرعب الذى يبثُّه فى قلوب أعدائه يسبقه إليهم مثل جيشٍ مجلجلٍ صاخبٍ ، فنفس الخليفة تتميَّز بثباتٍ وجلدٍ يساوى ما لدى جيشٍ كاملٍ ضخمٍ ، ومع ذلك فإن

(١٣٠)ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، د.ت ، ٥٨/١ .

(١٣١) المطعم : المعطى أو الممنوح ، تكهم : تنبو .

(١٣٢) أشبوها : حصنوها ، الأشب : الحصين .

قوة الخليفة مستمدَّة من قوة الله ، فالله هو الفاعل النهائي ؛ والخليفة سلاحه وهذا ما تدعمه البنية التركيبية الجدلية لبقية الأبيات ، فمهما كان السهم موفَّقًا فإنَّ الرامي هو الذى يخطئ ويصيب ؛ حيث يعلن الشاعر أن الرامي لم يكن إلا الله ، ومهما تكن جهود العدو فى حماية المدينة ، وقد أحاطوها بالجند والرماح حتى صاروا كالشجر الملتف حولها ، فإنَّ الله مفتاح كلِّ معقلٍ .

ولم يختلف موقف الطائيِّ الأصغر أبي عبادة البحتري عن موقف سابقه ، فقد حرص البحتري على مدح المتوكِّل ، فمدحه غير مرة، ورثاه بعد مقتله، ومن نظمه في مدح المتوكل قصيدته الرائعة التى مطلعها [١٣٣] : (بسيط)

ميلوا إلى الدار مِن لَيلى نُحَيِّيها ... نَعَم وَنَسأَلُها عَن بَعضِ أَهليها

يادِمنَةً جاذَبَتها الريحُ بَهجَتَها ... تَبيتُ تَنشُرُها طَوراً وَتَطويها

لازِلتِ في حُلَلٍ لِلغَيثِ ضافِيَةٍ ... يُنيرُها البَرقُ أَحياناً وَيُسديها

تَروحُ بِالوابِلِ الداني رَوائِحُها ... عَلى رُبوعِكِ أَو تَغدو غَواديها

ثم يستطرد البحتري في هذه القصيدة مصوِّرًا أهلية المتوكِّل للخلافة وأحقيّته فيها ، بل عدم صلاحها إلَّا له، وكأنَّها قُدَّتْ على مقاسه ،ضاربًا الشواهد على ذلك ؛ فهو ذو نسبٍ رفيعٍ وخلقٍ كريمٍ، وغير ذلك على نحو ما نجده في قوله [١٣٤] :

إِذا مَساعي أَميرِ المُؤمِنينَ بَدَت ... لِلواصِفينَ فَلا وَصفٌ يُدانيها

إِنَّ الخِلافَةَ لَمّا اهتَزَّ مِنبَرُها ... بِجَعفَرٍ أُعطِيَت أَقصى أَمانيها

أَبدى التَواضُعَ لَمّا نالَها رَعَةً ... مِنهُ وَنالَتهُ فَاختالَت بِهِ تيها

---

(١٣٣)ديوان البحتري ، تحقيق وشرح وتعليق :حسن كامل الصيرفى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف . د.ت، ٤/٢٤١٤ - ٢٤١٥.

(١٣٤)ديوان البحتري : ٤/٢٤٢٠ - ٢٤٢١.

إذا تَجَلَّتْ لَهُ الدُّنيا بِحِليَتِها		رأتْ مَحاسِنَها الدُّنيا مَساوِيها
يا ابنَ الأَباطِحِ مِن أرضٍ أباطِحُها		في ذُروَةِ المَجدِ أعلى مِن رَوابيها[١٣٥]
ما ضَيَّعَ اللَهُ في بَدوٍ وَلا حَضَرٍ		رَعِيَّةً أَنتَ بِالإِحسانِ راعيها
وَأُمَّةٍ كانَ قُبحُ الجَورِ يُسخِطُها		دَهرًا فَأَصبَحَ حُسنُ العَدلِ يُرضيها

كما ناصر علي بن الجهم خلفاء الدولة العباسيَّة ، حيث مدح الخليفة الواثق بقصيدةٍ بيَّن فيها اتِّصال نسب الخليفة بالنبيِّ (صلى الله عليه وسلم) وصلة القرابة بينهما، موضِّحًا موقفه وموقف قومه من الخليفة، وهو موقفٌ يشير إلى التأييد المطلق للخليفة ، كما أيَّد المتوكل عندما قضى على فتنة خلق القرآن بعد أن أمر برفع المحنة ، وأرسل إلى الآفاق يطلب إليهم وقف القول بخلق القرآن ؛ وربما كان ذلك لأنَّ علي بن الجهم نفسه كان من الرافضين لفكرة خلق القرآن ، ومما قاله في مدح المتوكل [١٣٦] : (طويل)

عُيونُ المَها بَينَ الرُّصافَةِ وَالجِسرِ		جَلَبنَ الهَوى مِن حَيثُ أَدري وَلا أَدري
أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُن		سَلَوتُ وَلَكِن زِدنَ جَمراً عَلى جَمرِ
سَلِمنَ وَأَسلَمنَ القُلوبَ كَأَنَّما		تُشَكُّ بِأَطرافِ المُثَقَّفَةِ السُمرِ[١٣٧]
وَقُلنَ لَنا نَحنُ الأَهِلَّةُ إِنَّما		تُضيءُ لِمَن يَسري بِلَيلٍ وَلا تَقري

ثم انطلق بعد ذلك يمدح الخليفة المتوكِّل ويشيد بدوره في خدمة الدِّين الإسلاميِّ ، فهو مَن أزال به الله أباطيل المعتزلة وزيغهم عن الحق ، وهو إمام

---

(١٣٥) ابن الأباطح : يقصد أنه قرشي من بطحاء مكة .

(١٣٦)ديوان علي بن الجهم : تحقيقه: خليل مردم بك ، وزارة المعارف – السعودية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م ،ص٢٢٠.

(١٣٧) أطرافِ المُثَقَّفَةِ السُمرِ :أسنة الرماح .

المسلمين الذي أحسن إليهم وأكرمهم ، ولا ينسى علي بن الجهم أن يشير إلى رجاحة عقل الخليفة وحسن تدبيره ، وذلك في قوله [١٣٨] :

فَتىً تَسعَدُ الأَبصارُ في حُرِّ وَجهِهِ ... كَما تَسعَدُ الأَيدي بِنائِلِهِ الغَمرِ [١٣٩]

بِهِ سَلِمَ الإِسلامُ مِن كُلِّ مُلحِدٍ ... وَحَلَّ بِأَهلِ الزَيغِ قاصِمَةُ الظَهرِ [١٤٠]

إِمامُ هُدىً جَلّى عَنِ الدينِ بَعدَما ... تَعادَت عَلى أَشياعِهِ شِيَعُ الكُفرِ

وَفَرقَ شَملَ المالِ جودُ يَمينِهِ ... عَلى أَنَّهُ أَبقى لَهُ أَحسَنَ الذِكرِ

إِذا ما أَجالَ الرَأيَ أَدرَكَ فِكرُهُ ... غَرائِبَ لَم تَخطُر بِبالٍ وَلا فِكرِ

وَلا يَجمَعُ الأَموالَ إِلّا لِبَذلِها ... كَما لا يُساقُ الهَديُ إِلّا إِلى النَحرِ

أمّا الفريق الآخر من الشعراء العباسيين فهم الشعراء الذين ناصبوا الخلافة العباسية العداء ، وأبانوا عن موقفهم الرافض لخلفاء الدولة العباسية ، وطعنوا على حقهم في الخلافة ، فلا يستبعد أن يهمل الخلفاء العباسيون أولئك الشعراء الذين كان لهم قدم سبق فى الإشادة بالأمويين ؛ فلا يلتفتون إليهم على الأقل فى بداية الدولة ، وإن سمحوا لهم بالدخول عليهم ، وحضور مجالسهم ، وهذا فى واقع الأمر تصرُّفٌ قد يكون مؤقَّتًا ، إذ مايلبث الشاعر أن يجد له مكانةً ، ويحظى شعره بالقبول لدى الخلفاء العباسيين فيأخذ مكانه بعد أن تغاضى عنه أولو الأمر من

---

(١٣٨)ديوان علي بن الجهم : ص٢٢٢ .

(١٣٩) نائله الغمر : عطائه الكثير .

(١٤٠) أهل الزيغ : أهل الباطل .

منطلقات سياسية تسعى لتوظيف الشعر لخدمة السلطة ، والحط من قدر أعدائها [١٤١].

وأول من نجد من هؤلاء بشار بن برد الذي مدح الخليفة المهدي فقرّبه المهدي إليه وخلع عليه العطايا والأموال ، إلّا أنّ الأمر تغير بعد أن قام المهدي بتعقب الزنادقة وقتل منهم الكثير ، فرثاهم بشار في شعره وهجا الخليفة المهدي ، فضُرِب بالسوط حتى مات ، ورمي به ثم جاء بعض أهله فحملوه ودفنوه[١٤٢] ، وكان من شعره الذي هجا به الخليفة المهدي وكان سببًا مباشرًا في قتله قوله [١٤٣] : (سريع)

خَليفَـةٌ يَزنـي بِعَمّاتِـهِ ... وَيلَعَـبُ بِالـدَبّوقِ وَالصَولَجان

أَبـدَلَنا اللَـهُ بِـهِ غَيـرَهُ ... وَدَسَّ مُوسـى ....

وكان دعبل الخزاعي من الشعراء الذين انقلبوا على خلفاء الدولة العباسية ، فقد هجا الرشيد والمأمون ، كما هجا المعتصم هجاءً مرًّا فقال [١٤٤] : (طويل)

بَكـى لِشَـتاتِ الـدين مُكتَئِـبٌ صَـبُّ ... وَفـاضَ بِفَـرطِ الـدَّمع مِـن عَينِـهِ غَـربُ

وَقـامَ إِمـامٌ لَـم يَكُـن ذا هِدايَـةٍ ... فَلَـيسَ لَـهُ ديـنٌ وَلَـيسَ لَـهُ لُـبُّ

---

(١٤١)شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري : قحطان التميمي ، مطبعة النعمان ، ١٩٧٢م ، ص ٦٨

(١٤٢)الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس ، دار صادر ،بيروت ، الطبعة الثالثة ،٢٠٠٨م ، ١٧٥/٣ .

(١٤٣) ديوان بشار بن برد : جمع وتحقيق : محمد الطاهر بن عاشور ،مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص٢٠٧ .

(١٤٤)شعر دعبل الخزاعي : جمعه : عبد الكريم الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، ص ٤٨ -٤٩.

وَمـــا كانَـــتِ الأَنبـــاءُ تَـــأتي بِمِثلِـــهِ ... يُمَلِّـــكُ يَومًـــا أَو تَـــدينُ لَـــهُ العُـــربُ

وَلَكِـن كَمـا قـالَ الَّـذينَ تَتَـابَعوا مِـنَ ... السَلَفِ الماضـي الَّـذي ضَـمَّهُ التُـربُ

مُلـوكُ بَنـي العَبّاسِ فـي الكُتـبِ سَبعَةٌ ... وَلَـم تَأتِنـا عَـن ثـامِنٍ لَهُـمُ كُتـبُ[١٤٥]

كَـذَلِكَ أَهـلُ الكَهـفِ فـي الكَهـفِ سَبعَةٌ ... خِيـارٌ إِذا عُـدّوا وَثـامِنُهُم كَلـبُ

وَإِنّـي لَأُعلـي كَلـبَهُم عَنـكَ رِفعَـةً ... لِأَنَّـكَ ذو ذَنـبٍ وَلَـيسَ لَـهُ ذَنـبُ

ولعلّ بعض الشعراء في هذا العصر قد خافوا بطش الخلفاء العباسيين فلم يجاهروا برأيهم صراحةً ، ولم يتعرّضوا للخلفاء العباسيين بالهجاء أو المعارضة ، مثلما فعل القاسم بن يوسف حين رثى أخاه الذى كان المأمون وراء موته ، فلم يمتلك الجرأة ليعرّض بالخليفة المأمون ، وإنما عزا الأمر إلى الدهر قائلًا [١٤٦]:

رمـــاكَ الـــدهر بالخطـــب الجليـــل ... فعـــزِّ الـــنفسَ بالصـــبر الجميـــلِ

وانَّ الـــــدهرَ لا يبقـــــى عزيـــــزًا ... ولا تنبـــو يـــداه مـــن الـــذليلِ

فـــإنَّ الـــدهرَ لا عتبـــى عليـــهِ ... ولـــيس يقيـــلُ عثـــرةَ مســـتقيلِ

عـــزاءكَ قـــد جـــدا بأخيـــك حـــاد ... ونـــــاداهُ المنـــــادي بالرحيـــــلِ

ومالـــكَ بعـــدَ أحمـــد مـــن عـــزاء ... ومالـــكَ بعـــدَ أحمـــد مـــن ذهـــولِ

وبالرغم من خوف بعض الشعراء وخشيتهم بطش الخلفاء إلّا أنّ خلفاء العصر العباسي تركوا للشعراء حريّة التعبير عن الذّات ، فأبو العتاهية وكان قد امتنع عن مجالس الرشيد وأبَى أن ينشد شعر الغزل ، فأمر الرشيد بحبسه

---

(١٤٥) ثامنهم : يقصد المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين .

(١٤٦) الأوراق – قسم أخبار الشعراء : أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ،تحقيق : هيورث دن ، دار أمل ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ ، ص٢٢٨-٢٢٩

والتضييق عليه ، فأرسل إليه أبو العتاهية أبيات شعرٍ ما إن سمعها الرشيد حتى رقّ له وأمر بإطلاقه ،ومنها [١٤٧]: (وافر)

أَمَــا وَاللَّــهِ إنَّ الظُّلْــمَ لُــومُ وَلَكِــنَّ المُسِــيءُ هُــوَ الظَّلُــومُ
إلــى دَيَّــانِ يَــومِ الــدِّينِ نَمضــي وَعِنْــدَ اللَّــهِ تَجتَمِــعُ الخُصــومُ
لأَمــــرٍ مَـــا تَصَـــرَّفَتِ اللَيَـــالي وَأَمْــــرٍ مَـــا تُوُلِّيَـــتِ النُجـــومُ
سَــتَعلَمُ فِــي الحِســابِ إذا التَقَينــا غَــداً عِنْــدَ الإلَــهِ مَــنِ المَلُــومُ
سَــيَنقَطِعُ التَّــرَوُّحُ عَــنْ أُنــاسٍ مِــنَ الــدُّنيا وَتَنقَطِــعُ الغُمــومُ
تَلُــومُ عَلــى السَّــفاهِ وَأَنْــتَ فيــهِ أَجَــلُّ سَــفاهَةً مِمَّــن تَلُــومُ
وَتَلْــتَمِسُ الصَّــلاحَ بِغَيــرِ حِلْــمٍ وَإنَّ الصَّــالِحينَ لَهُــم حُلُــومُ
تَنَــامُ وَلَــم تَــنَم عَنْــكَ المَنايــا تَنَبَّــه لِلمَنِيَّــةِ يَــا نَــؤُومُ

إذن فقد مثّلت قضية الخلافة دافعًا رئيسًا للشعراء للإبانة عن مواقفهم من الخلفاء العباسيين بين مؤيد ومعارض لهم ، وقد نبعت جلّ هذه الرؤى من أعماق ذواتهم وأفكارهم ومعتقداتهم الذّاتيّة ، مع تحوّل بعضهم إلى غاياتٍ نفعيَّةٍ ، سخّروا من خلالها أشعارهم للتكسّب [١٤٨] ؛ فأصبحوا أشبه بالمداحين منهم بالمحامين[١٤٩] .

---

(١٤٧) ديوان أبي العتاهية : جمعه وقدم له : كرم البستاني ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص٣٩٨-٣٩٩ .

(١٤٨) الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري : أحمد كمال زكي ، دار المعارف ، ١٩٧١ م ، ص٤٠٧.

(١٤٩) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول : عزيز فهمي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩م ، ص ٢١٣

٢- الموالي والشعوبية :

أخذ الفرس فى نهاية الدولة الأموية يوسّعون من نفوذهم ، ويعملون على إحياء دياناتهم القديمة فى محاولةٍ لنشرها ، وتعميمها ، فبدأت تكتُّلاتهم حينئذٍ فى خراسان وكان قيام الدولة العباسية إيذانًا بتغيُّراتٍ سياسيةٍ كبرى ، وظهور عناصر جديدةٍ فى الحياة السياسيَّة ، حيث انبثقت الدعوة العباسية من خراسان مركز الموالي بعد أن نقلوا إليها تنظيمهم وتجمُّعهم ، ومنذ مطلع القرن الثانى بات الأمر يتحول لصالح الموالى فى كثيرٍ من أمور الحياة الاجتماعية وقد اتَّضحت سمات هذا التحول بقيام الدولة العباسيَّة (١٣٢هـ) إذ كان الموالى عدَّتها وعتادها[١٥٠] ، وقد كان ذلك " نتيجةً طبيعيَّةً لما صاحب ضعف الخلافة الأموية فى آخر عهدها حيث ظهور عناصر من الموالى التفت جميعها إثر قيام الدولة العباسية ، وأخذت تتنافس على السيادة ، والرزق ، فكان لذلك أثر بالغ فى الحياة الاجتماعية خلال القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وقد تبوأ هؤلاء الموالى وضعهم فى المجتمع العربى المسلم" [١٥١].

وقد قسم المؤرخون العصر العباسي إلى قسمين : العصر العباسي الأول الذي امتاز بسيطرة الفرس على مقاليد الأمور ، فكانوا هم الوزراء والقادة، واستمرَّ حتّى مقتل الخليفة المتوكّل سنة٢٤٧ هـ ، والعصر العباسي الثاني الذي امتاز بسيطرة الترك

---

(١٥٠)حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة : يوسف خليف ، دار الكتاب العربى للطباعة النشر ، القاهره ، ١٣٨٨ هـ ، ص ١٦٩ .

(١٥١)دراسات فى حضارة الاسلام : هاملتون جب ، ترجمة : إحسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م ، ص ٨٨ .

على مقاليد الخلافة وقيادة الجيش، وكانوا يعيِّنون الخليفة ويعزلونه أو يقتلونه، واستمرَّ الحال على ذلك حتى دخل البويهيون بغداد[١٥٢] ؛ بما يعني أنَّ الموالى قد سيطروا على الدولة العباسية في عصريها الأول والثاني من خلال الفرس ثم الترك ، وكانت لهم الكلمة العليا في شئون الحكم والإدارة في بلاط خلفاء الدولة العباسية .

حيث استغل الموالى عطف الخلافة العباسية عليهم ، فتمكَّنوا من بسط نفوذهم فى البلاط ، وفى أرجاء الدولة الإسلاميَّة ، وأصبحوا يتمتعون بقدرٍ كبيرٍ من النفوذ الاجتماعى ، والسياسى ، فى حين تراجع العرب إلى المكان الثانى بعد أن كانوا أصحاب الصدارة ، والنفوذ فى الدولة الأموية [١٥٣] ، ولم يتَّصف بنو العباس فى بداية الأمر بالحزم ضد هؤلاء الأعاجم بل كافؤهم بتقريب كثير منهم ، وأسندوا إليهم منذ عهدٍ مبكِّرٍ ولاية الأعمال ، ومنهم على سبيل المثال أبو مسلم الخراسانى ، قائد الثورة العباسية فى خراسان ، كما كان منهم خالد البرمكيّ زعيم الأسرة البرمكية الذين أصبحوا فى العقد الأول من حكم العباسيين مركز السلطة ، حتى استفحل أمرهم ، وظهرت ميولهم السياسيَّة والمذهبيَّة ، فنكبهم الرشيد ، وقد بقيت هذه الفرق السياسية والمذهبية مصدرًا لكثيرٍ من القلاقل التى أجهدت الدولة العباسية فى أحيان كثيرةٍ [١٥٤] .

---

(١٥٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، سابق ، ص٣٩٦ .

(١٥٣)الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري :مرجع سابق ، ص٢٦٠ .

(١٥٤)الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م ، ج ٥ ص ٦٩ – ٧٧ .

ولم يقتصر الأمر على الناحية السياسية فقط ؛ " فقد سيطروا على كثيرٍ من النواحي الاجتماعية مما جعل العرب ينظرون إلى ذلك بغرابةٍ وسأمٍ ، إذ كان من هؤلاء الموالى فى العصر العباسيّ الوجهاء المقرّبون ، والقادة ، والوزراء ، واستأثروا بكثيرٍ من موارد الدولة الإسلاميّة " [١٥٥] .

ومن هنا أخذت الشعوبيّة [١٥٦] تظهر على ساحة المجتمع كحركةٍ مناهضةٍ للعنصر العربيّ يعلنها شعراء الموالى صريحةً مدويّةً فى أسلوبٍ من الفخر بالعنصر الفارسيّ ومجده القديم[١٥٧] ، فقد رأى الموالى أن العرب فى القرن الأول ، وبالتحديد فى خلافة بنى أمية قد خامرهم شعور بأنّ العربيّ المسلم خُلِق ليسود ، وخُلِق غيره ليخدم [١٥٨] ، وأنّهم أهل السايسة والحرب بينما الموالى أصحاب المهن اليدوية كالصناعة والزراعة والتجارة ، والحياكة وغير ذلك [١٥٩] ؛ في حين " رأى العرب أن العروبة شرف لايطوله الموالى الذين لم يظهر فيهم الاسلام ، وشعروا بأفضليتهم على غيرهم ، رغم أن هذا الشعور متى وجد فإنّه يناقض المبادئ

---

(١٥٥) الشعوبيّة حركة مضادة للاسلام والأمة العربية : عبدالله سلوم السامرائي ، طبعة منشورات وزارة الثقافة العراقية ،بغداد ، ١٩٨٤م ، ص ١٠٨ – ١١٧ .

(١٥٦) الشعوبيّة: نزعةٌ في العصر العباسى تنكر تفضيل العرب على غيرهم ، وتحاول الحطّ منهم ، فالشّعوبيون :قومٌ متعصبون على العرب لا يرون لهم فضلاً على غيرهم من الأمم، إن لم يكونوا أقلّ منهم شأنًا ومنزلةً ، انظر : مظاهر الشعوبية في الأدب العربي : محمد نبيه حجاب ، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، الطبعة الأولى ١٩٦١ م، ص١ .

(١٥٧)الحياة الأدبية فى البصرة إلى نهاية القرن الثانى الهجرى :مرجع سابق ، ص : ١٢٨ .

(١٥٨) العصر العباسى الأول : عبدالعزيز الدورى ، دار المعلمين العالية ، بغداد ، ١٩٤٥م ، ص٦ .

(١٥٩) فى الشعر العباسى الرؤية والفن : الدكتور عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ، ١٩٨٠م ، ص٧٠ .

السامية التي يدعو إليها الدين الإسلاميّ ، لأنّه مبنيٌّ على مفاهيم اجتماعيةٍ قد يكون محورها العصبيّة الجنسيّة " [١٦٠] .

فقد أصبحت الشعوبية عنوانًا لتمزُّق المجتمع الإسلامي منذ قيام الدولة العباسيّة على يدِّ أبي مسلم الخرساني ، حيث تذكر المصادر قيامه بقتل أكثر من ستمائة ألفٍ من العرب المسلمين [١٦١] ، وليس من شك في أنّ المسئوليّة مشتركةٌ بين الجانبين العربيّ والأعجميّ ، فقد كان أسلوب الشعوبيين في النيل من العرب يعتمد حينًا على مبررات يلتمسونها تأخذ شكل الدفاع عن النفس كما فعل بشار وحسبما فعل الخريمي ، وحينًا آخر كان الشعوبي ينطلق من عقدة كراهيّةٍ للعرب فيهجوهم متطوّعًا دون أن يحفل باختلاق سببٍ لهجائهم مثلما فعل علي بن الخليل وأبونواس[١٦٢] .

ومن أمثلة ذلك ما جاء في شعر أبي يعقوب الخريمي [١٦٣] من اعتزازٍ وفخرٍ بشعوبيّته وأصله الأعجميّ حين يقول[١٦٤] : (بسيط)

إنّي امرؤٌ مِن سُراة الصُغد ألبَسَني   عِرقُ الأعاجم جلدًا طيبَ الخَبَر

---

(١٦٠) دولة بني العباس : شاكر مصطفي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ط (١) ، ١٩٧٣م ، ١/ ٢٤ .

(١٦١) الدولة العباسية قيامها وسقوطها : حسن خليفة ، المكتبة الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٣١م ، ص ٣٤-٣٦ .

(١٦٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق ، ص١٧٤ .

(١٦٣)الخريمي (١٦٦ - ٢١٢ هـ / ٧٨٢ - ٨٢٧ م) : إسحاق بن حسان بن قوهي الصفدي أبو يعقوب الخريمي ، شاعر مطبوع وصفه أبو حاتم السجستاني بأشعر المولدين ، خرساني الأصل من أبناء الصغد ولد في الجزيرة الفراتية وسكن بغداد واتصل بخريم الناعم فنسب إليه أو كان اتصاله بابنه عثمان بن خريم.

(١٦٤)الشعر والشعراء في العصر العباسي : سابق ، ص ١٧٥.

ومن الشعراء الذين تغنّوا بالشعوبيّة في العصر العباسيّ بشار بن برد فنجده في هذه الأبيات يتبرّأ من ولائه للعرب بقوله [١٦٥] : (كامل)

أصبحتَ مَولى ذي الجَلالِ وَبَعضُهُم ... مَولى الغُرَيبِ فَجُد بِفَضلِكَ فَافخَرِ
مَولاكَ أَكرَمُ مِن تَميمٍ كُلِّها ... أَهلِ الفَعالِ وَمِن قُرَيشِ المَعشَرِ
فَارجِع إِلى مَولاكَ غَيرَ مُدافَعٍ ... سُبحانَ مَولاكَ الأَجَلِّ الأَكبَرِ

فهو يقرّر أنّه عبدٌ الله وليس معتزًا بولاء العرب ، وبذلك يصوّر بشار تنازله عن ولائه في بني عقيل وتنكُّره للعرب ، وادّعاءه الالتجاء إلى الله ، فالله عز وجل أفضل حليفٍ له، ولا يريد محالفة القبائل ويقصد بذلك بني عقيل .

ويمضي بشار مفتخرًا بأجداده الفرس وأخواله الروم محاولاً الانتقاص من العرب بقوله موازنًا بين حضارة الفرس وحضارة العرب[١٦٦] : (رجز)

هَل مِن رَسولٍ مُخبِرٍ ... عَنّي جَميعَ العَرَبِ
مَن كانَ حَيّاً مِنهُمُ ... وَمَن ثَوى في التُرَبِ
بِأَنَّني ذو حَسَبٍ ... عالٍ عَلى ذي الحَسَبِ
جَدّي الَّذي أَسمو بِهِ ... كِسرى وَساسانُ أَبي
وَقَيصَرٌ خالي إِذا ... عَدَدتُ يَوماً نَسَبي
كَم لي وَكَم لي مِن أَب ... بِتاجِهِ مُعتَصِبِ

فهو يخبر العرب جميعًا أنه ينتمي إلى الفرس ويفتخر بذلك ، فهم ملوكٌ يعيشون في قصورٍ فخمةٍ ويلبسون ثيابهم الفاخرة ، وتتألق الجواهر فوق رؤوسهم ، والكلُّ يركع أمامهم في خشوعٍ وإجلالٍ ، ثم يُظهِر العرب بدوًا متخلفين متأخرين

---

(١٦٥) ديوان بشار ، سابق ، ١ / ٢١.

(١٦٦) ديوان بشار بن برد : سابق ، ١/ ٣٨٩ .

يعيشون في باديَّةٍ فقيرةٍ مجدبةٍ خلف إبلهم العجفاء الهزيلة الجرباء في فقرٍ مدقعٍ يقتاتون من أورال الصحراء وضبابها لينالوا منها ما يسدون به رمقهم فيقول[١٦٧] :

لَـــم يُسـقَ أقطـابَ سِـقىً يَشـرَبُها فـي العُلَـب
وَلا حَـدا قَـطُّ أَبـي خَلـفَ بَعيـرٍ جَـرِب
وَلا أَتـى حَنظَلَـةً يَنقُبُهـا مِـن سَـغَب
وَلا أَتـى عُرفُطَـةً يَخبِطُهـا بِالخَشَـب
وَلا شَـوَينا وَرَلاً مُنَضنِضـاً بِالـذَنَب
وَلا تَقَصَّـعتُ وَلا أَكَلـتُ ضَـبَّ الحِـزَب

ويعلن أبو نواس عن كراهيته للعرب وقبائل العرب ، فيقول مهاجمًا كبريات قبائلهم[١٦٨] : (بسيط)

قـالوا ذَكَـرتَ دِيـارَ الحَـيِّ مِـن أَسَـدِ لا دَرَّ دَرُّكَ قُـل لـي مَـن بَنـو أَسَـدِ
وَمَـن تَمـيمٌ وَمَـن قَـيسٌ وَإِخـوَتُهُم لَـيسَ الأَعاريبُ عِنـدَ اللَـهِ مِـن أَحَـدِ
دَع ذا عَـدِمتُكَ وَاشـرَبها مُعَتَّقَـةً صَـفراءَ تُعنِـقُ بَـينَ المـاءِ وَالزَبَـدِ

ويقول في موضع آخر مظهرًا حقده على العرب وتعصُّبه للعجم[١٦٩]: (وافر)

دَعِ الأَطـلالَ تَسـفِيها الجَنـوبُ وَتُبلـي عَهـدَ جِـدَّتِها الخُطـوبُ
وَخَـلِّ لِراكِـبِ الوَجنـاءِ أَرضـاً تَخُـبُّ بِهـا النَجيبَـةُ وَالنَجيـبُ
بِـلادٌ نَبتُهـا عُشَـرٌ وَطَلـحٌ وَأَكثَـرُ صَـيدِها ضَـبعٌ وَذيـبُ

---

(١٦٧) نفسه ، ١/ ٣٨٩ – ٣٩٠ .

(١٦٨) ديوان أبي نواس : تحقيق : إيفالد فاجنر ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، ٣/١١٠.

(١٦٩) نفسه : ٣ /٤٣–٤٦ .

وَلا تَأْخُـــذ عَـــن الأعـــرابِ لَهـــوًا　　　وَلا عَيشــــاً فَعَيشُــــهُم جَـــديبُ

فَـــذاكَ العَـــيشُ لا خِـــيَمُ البَـــوادي　　　وَذاكَ العَـــيشُ لا اللَّـــبَنُ الحَليـــبُ

فَـــأَينَ البَـــدوُ مِـــن إيـــوانِ كِســـرى　　　وَأَيـــنَ مِـــنَ المَيـــادينِ الـــزُروبُ

ومن بين الشعراء الذين نادوا بالشعوبية الشاعر ديك الجن [١٧٠]، فمن أقواله في الشعوبية والتعصب على العرب : " ماللعرب علينا فضل، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم، وأسلمنا لما أسلموا، ومن قتل منهم رجلاً قُتِلَ به ، ولم نجد الله عز وجل فضَّلهم علينا إذ جمعنا الدين "[١٧١] ، ومن شعره ما قاله يفتخر بقيصر وكسرى[١٧٢]: (بسيط)

إنِّـــي ببابِـــكَ لا وُدّي يُقَرِّبُنـــي　　　ولا نســـيبي يعلـــو بـــي ولا نَسَـــبِي

إنْ كـــانَ عُرْفُـــكَ مَـــذْخُوراً لِـــذِي سَـــبَبٍ　　　فاضْـــمُمْ يَـــدَيْكَ على حُـــرٍّ أخـــي سَـــبَبِ

أوْ كُنْـــتَ وافَقْتَـــهُ يَوْمـــاً علـــى نَسَـــبٍ　　　فَـــاقْبِضْ يَـــدَيْكَ فَـــإنّي لَسْـــتُ بِـــالعَرَبِيْ

إنِّـــي امْـــرُؤٌ بـــازِلٌ فـــي ذُرْوَتَـــيْ شَـــرَفٍ　　　لِقَيْصَـــرٍ ولِكِسْـــرَى مَحْتِـــدِي وأبـــي

وتذكر المصادر أن " رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر بن الحسين كانوا يذكون نار الشعوبية فيمن حولهم من الفرس، وقد اختلف الناطقون بها بين عالم وأديب وشاعر نذكر منهم :أبا عبيدة اللغوي الإخباري المشهور وأصله من يهود فارس، وقد صبَّ عنايته على تسجيل مثالب العرب ، وبلغ من فساد

---

(١٧٠) ديك الجن(١٦١– ٢٣٥ هـ / ٧٧٧ – ٨٤٩ م): عبد السلام بن رغبان، كان شديد التعصب على العرب، شاعر مجيد، من شعراء الدولة العباسية، ذهب مذهب أبي تمام، أصله من (سلمية) قرب حماة ، ومولده ووفاته بحمص .

(١٧١) الأغاني :سابق : ١٤ / ٣٣ .

(١٧٢) ديوان ديك الجن : جمع وتحقيق : مظهر الحجي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٤ م ، ص٧٨ –٧٩ .

طويته أن طعن في بعض أنساب الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم -وليس من شك في أن عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمله من وقودٍ جزلٍ لهذه الشعوبيّة (١٧٣)" .

ولقد أدرك الخليفة المعتصم خطر الفرس فى المجتمع ، واتساع شأنهم فى الدولة ، فأراد أن يتّخذ غيرهم لعلّ ذلك يقلّص من نشاطهم المتزايد ، ويبعد عن الدولة خطرهم القادم ، فأخذ فى تقريب العنصر التركيّ وجعل منهم وزراءه وقواده ، لكن أمرهم لم يلبث أن استفحل ، وأساءوا إلى عامة الناس فى بغداد ، فقد استقدم عددًا كبيرًا من الأتراك ، وبلغت عدّتهم ثمانية عشر ألفًا، ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا السبعين ألفًا، فنزع بهم إلى سامرّاء ، وأخذ الأتراك يتعلمون العربية بعدما دخلوا في الإسلام، وكان ذلك ضربةً قاضيةً للعنصر العربيّ ودوره في الخلافة (١٧٤).

وقد ردّ بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها ، وقد حذّروا من سيطرة الموالى على أمور السياسة والحكم ، من ذلك قول يزيد بن محمد المهلبي يرثي المتوّكل و يصف ما آل إليه وضع الخلافة العباسية من سيطرة الموالى (١٧٥): (بسيط) :

إنّـا فقـدناكَ حتـى لا اصـطبار لنـا ... ومـاتَ قبلـك أقـوامٌ فمـا فُقـدوا
قد كنتُ أسرفُ فى مالى وتخلف لى ... فعلّمتنـي الليـالى كيـف أقتصـدُ
لمّـا اعتقـدتُم أناسًـا لا حلـوم لهـم ... ضـعتم وضـيّعتم مـن كـان يعتقـدُ

---

(١٧٣) الفهرست: لابن النديم، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ،لبنان ، ١٣٩٨ هـ ، ص ٧٩.

(١٧٤)تاريخ الطبرى : سابق ، ٩ /٢٦٢ .

(١٧٥) الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصداها في الأدب : صالح آدم بيلو ، طبعة مكة ، ط ١ ، ١٤٠٩ -١٩٨٨ م ، ص٣٤٩ .

ولـو جعلـتُم علـى الأحـرار نعمـتُكم		حمتكم السـادةُ المـذكورةُ الحُشُـدُ
قـومٌ هـم الجـذمُ والأنسـابُ تجمعُهُـم		والمجـد والـدين والأحـلامُ والبلـدُ
إنَّ العبيـدَ إذا أذللـتهم صـلحوا		علـى الهـوان وإن أكـرمتَهُم فسـدوا
إذا قـريشٌ أرادوا شـدَّ ملكهـمُ		بغيـر قحطـانَ لـم يبـرح بـهِ أوَدُ

ولم يتوقف الأمر على الشعراء ، بل نجد الخلفاء أنفسهم يشكون مرَّ الشكوى من الموالي وازدياد نفوذهم ، فقد شكا الخليفة المنتصر من وضعه المؤلم ، وما يعانيه من استبداد العناصر التركيَّة وسيطرتها على أمور الدولة العباسيَّة في عهده ، فقد أصبح بلا حول ولا قوة وزال سلطانه الفعلي على الدولة ، فقال (١٧٦):

الـذلُّ يأبـاهُ الفتـى الحـرُّ		مـا لكـريمٍ معـهُ صـبرُ
لـمْ يعلـم النـاسُ الـذي نـالني		فلـيسَ لـي عنـدهم عـذرُ
كـانَ إلـيَّ الأمـرُ فـي ظـاهر		ولـيسَ لـي فـي بـاطن أمـرُ

وإذا كانت الشعوبيَّة قد أثارت النزعة القوميَّة لدى الشعراء العباسيين إلَّا أنَّ بعضهم قد كشفوا عن رؤيتهم الذَّاتيَّة الخاصة في رفضهم تصنيف البشر على أساس الجنس والعرق ، فيكشف البحتري عن مبدئه في المفاضلة بين الناس بالأعمال العظيمة والشرف ، لا بالقربى والنسب في قوله(١٧٧) : (خفيف)

ذاكَ عنـدي وَلَيسـتِ الـدّارُ داري،		بـاقترابٍ منهـا، ولا الجـنسُ جنسِـي
غَيـرَ نُعْمَـى لأهلِهَـا عنْـدَ أهْلِـي،		غَرَسُـوا مـنْ زَكَائِهـا خيـرَ غَـرْسِ

---

(١٧٦) معجم الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، تصحيح وتعليق : ف . كرنكو ، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ،ص ٤٤٦ .

(١٧٧) ديوان البحتري : ٢ /١١٦٢ .

أيّدوا مُلْكَنَا، وَشَدّوا قُوَاهُ ... بكُماةٍ، تحتَ السَّنَوّر، حُمسِ

وأعانُوا عَلى كتَائِبِ أرْيَا ... طَ بطَعنٍ على النّحورِ، وَدَعْسِ

وأرَانِي، مِنْ بَعدُ، أكْلَفُ بالأشْ ... رافِ طُرّاً مِنْ كلّ سِنْخٍ وَاسّ

حيث يشير إلى أن مديحه للفرس لا لقرابةٍ بينه وبينهم ، وإنّما لأنّهم أعطوا كثيرًا أهله وأيّدوا ملكهم ، وأعانوهم قديمًا بما استطاعوا من سبلٍ ومن أمورٍ عظيمةٍ غدت عطاءً أو رمزًا للعطاء والفضل والمكرمات والمآثر والخير ، وقد رأى نفسه من بعد ذلك كله مطالبًا بمديح كلّ شريفٍ يقدم مآثر جليلةً من كلّ لونٍ وجنسٍ .

ويطرح المتنبي رؤيته في المفاضلة بين الناس بأعمالهم ونقاء نفوسهم لا بانتسابهم إلى أجدادٍ عظامٍ حين يقول [١٧٨] : (وافر)

وَآنَفُ مِنْ أخي لِأبي وَأُمّي ... إذا ما لَمْ أجِدهُ مِنَ الكِرامِ

أرى الأجْدادَ تَغْلِبُها كَثيراً ... عَلى الأوْلادِ أخْلاقُ اللّئَامِ

وَلَستُ بقانِعٍ مِنْ كُلّ فَضْلٍ ... بأنْ أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ

---

(١٧٨) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، ضبطه وصححه : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٣٦م ، ٤ /١٤٤-١٤٥.

٣- الفتن والثورات :

اتَّصف العصر العباسي بكثرة مشكلاته وحروبه الداخلية والخارجية على حدٍّ سواء، فبعد أن اتَّسم العصر العباسي الأول بكثرة النزاعات على ولاية العهد، وما تم فيه من حَبْك مؤامراتٍ لتنصيب ولي عهد أو خلع آخر؛ فإن العصر العباسي الثاني زاد على ذلك كلّه باستشراء خطر الفرس، ثم الترك، وقد ازداد الأمر سوءًا لمَّا عمَّت في هذا العصر في القرن الثالث الهجري ثوراتٌ لم يعهد لها الناس في ذلك الوقت مثيلًا، ومن أمثلتها :ثورتا الزنج والقرامطة [١٧٩] ، ويشير ابن طباطبا إلى ذلك قائلا : " واعلم أنَّ الدولة العباسية كانت دولةً ذات خدع ودهاء وغدر، وكان قسم التحيُّل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة، خصوصًا في أواخرها، فإنَّ المتأخرين منهم أبطلوا قوة الشدة والنجدة وركنوا إلى الحيل والخدع " [١٨٠] ، وقد عبَّر كشاجم[١٨١] عن ذلك في أشعاره واصفًا طابع الخلافة العباسيَّة وما اتَّصفت به من قتلٍ ومؤامراتٍ وسفكٍ للدماء قائلًا [١٨٢] : (طويل)

هَنِيئًا لِأَصْحَابِ السُّيُوفِ بَطَالَةٌ ... تُقْضَّى بِهَا أَيَّامُهُمْ فِي التَّنَعُّمِ

فَكَمْ فِيهِمُ مِنْ دَائِمِ الأَمْنِ لَمْ يُرَعْ ... بِحَرْبٍ وَلَمْ يَنْهَدْ لِقِرْنٍ مُصَمِّمِ

---

[١٧٩] صورة الخلافة في الشعر العباسي : مرجع سابق ، ص ١١١.

[١٨٠] الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : محمد بن على بن طباطبا ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ص ١٤٩ .

[١٨١] كشاجم (؟ - ٣٦٠ هـ / ؟ - ٩٧٠ م) : محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك أبو الفتح الرملي. شاعر متفنن أديب من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين فارسي الأصل كان أسلافه الأقربون في العراق. تنقل بن القدس ودمشق وحلب وبغداد وزار مصر أكثر من مرة واستقر بحلب .

[١٨٢] ديوان كشاجم ، شرح وتحقيق : النبوى عبدالواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م ، ٣٦٩ - ٣٧٠ .

يَــرُوحُ وَيَغْــدُو عَاقِــدَاً فِــي نِجَــادِهِ حُسَــاماً سَــلِيْمَ الحَــدِّ لَــمْ يَتَــثَلَّمِ
وَيَمْكُــثُ لاَ يَلْقَــى عَــدُوًّا فَــإِنْ غَــزَا فَوَاحِــدَةً فِــي الــدَّهْرِ لَــيْسَ بِتَــوْأَمِ
وَلَكِــنْ ذَوُو الأَقْــلاَمِ فِــي كُــلِّ سَــاعَةٍ سُــيُوفُهُمْ لَيْسَــتْ تَجِــفُّ مِــنَ الــدَّمِ

ففي بداية الدولة العباسيَّة قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين ، فرجع النزاع إلى ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء ، فتحركت الشيعة حركات عدها العباسيون عصيانًا ، كخروج النفس الزكية في المدينة أيام المنصور [١٨٣] ،وخروج يحيى ابن عبدالله في الديلم أيام الرشيد ، ويحيى بن عمر بن يحيى في الكوفة أيام المستعين ، وظهور الكوكبي بقزوين وطرده وآل طاهر لكنَّ الخلفاء تمكَّنوا من الثائرين وقتلوهم [١٨٤] .

ولم يقتصر الأمر على تناحر العرب على الخلافة بين عباسية وعلوية ، بل العباسيون أنفسهم لم يكونوا يدًا واحدةً ، فراجت بينهم سوق الاغتيال والدسائس والفتن : من ذلك قتل المنصور لعمه عبدالله [١٨٥]، وفتنة الأمين والمأمون ، وثورة إبراهيم بن المهدي عم المأمون وطلبه الخلافة ، وما كان من قتل المتوكِّل وغير ذلك من الحركات السياسية التي أوهنت قوى العنصر السائد ، ومهدت السبيل لانحلال عصبيته .

---

[١٨٣] النفس الزكية : هو محمد بن عبد الله من آل الحسن بن علي بن أبي طالب : ظهر في المدينة ونادى بنفسه خليفة، وكان قد اتفق مع أخيه إبراهيم بالظهور في البصرة على نحو متزامن ، فوجه المنصور جيشًا لمحمد ثم لإبراهيم وقضى على ثورتهما، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ. انظر : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، مرجع سابق ، ص٦٨ – ٦٩ .

(١٨٤)تاريخ الطبري : مصدر سابق ، أخبار سنة ٢٥١ .

(١٨٥)الكامل في التاريخ : مصدر سابق ، حوادث ١٤٧

كما كان للثورات التى وقعت فى القرنين الثانى والثالث دورٌ فى ضعف الدولة العباسيَّة ، وإثقال كاهلها بأعباء النفقات فى كثيرٍ من الأحيان ، فانتشرت الفوضى ، وتعطلت أسباب الرزق ، وقلت وسائل المعيشة ، مما أدى إلى التضييق على الناس ، بحيث تعذَّر عليهم طلب الرزق ، وماصاحب ذلك من تدخُّل بعض العناصر الأجنبيَّة ذات الأهواء السياسية فى شئون الحكم ، كما حدث من الأتراك الذين استبدوا ، والذين وصل بهم الأمر فى أحيان عدة إلى قتل الخلفاء ، ومصادرة كثير من الأموال الخاصة والعامة [١٨٦].

وإننا لنجد بغداد فى فتنة الأمين والمأمون كما صوَّرها الشعراء ، خرابًا لم يبقَ فيها مظهرٌ من مظاهر الحياة إلَّا وامتدت إليه يد التخريب والهدم ، فقد عاث فيها السفلة ، والغوغاء فسادًا فى فتنةٍ هوجاء عصفت بالناس[١٨٧] ، و قد انتهت الفتنة

---

(١٨٦)تاريخ الطبرى : ٩ / ٢٢٧ ، ٣٦٢ – ٣٦٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(١٨٧) يقول أحد الشعراء العباسيين مصورًا الخراب الذى حلَّ ببغداد في فتنة الأمين والمأمون :

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدتْ غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتنا من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي: واصباحاً ... وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلألاء البروق
حيارى هكذا ومفكرات ... عليهن القلائد في الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ... وقد فقد الشفيق من الشفيق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... فما يدرون من أي الفريق

بمقتل الأمين واستتبت الأمور للمأمون ، ويشير دعبل إلى دور الموالي في القضاء على الأمين وجيشه وتمكين المأمون قائلاً [١٨٨] : (كامل)

إنّـي مِـنَ القَـومِ الّـذينَ سُـيوفُهُم قَتَلَـتْ أخـاكَ وَشَـرَّفَتكَ بِمَقعَـدِ
رَفَعـوا مَحَلَّـكَ بَعـدَ طـولِ خُمولِـهِ واستَنقَذوكَ مِـنَ الحَضـيضِ الأَوهَـدِ
كَـم مِـن كَـريمٍ قَبلَـهُ وَخَليفَـةٍ أَضحى لَنـا دَمُـهُ لَذيـذَ المَقصِـدِ
مِثـلِ ابـنِ عَفّـانَ وَمِثـلِ وَليـدِهِم أو مِثـلِ مَـروانَ وَمِثـلِ مُحَمَّـدِ

أما العصر الثاني (٢٣٢هـ :٣٣٤هـ) ، فقد تميَّز بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء ، وفساد شئون الدولة [١٨٩] ، حيث نشأت الحركات الهدَّامة [١٩٠] ، فقد قامت بها هيئاتٌ منظَّمةٌ أحدثت تأثيرًا كبيرًا في الدولة العباسية ، وأهمُّها حركات الزنج والقرامطة والحشَّاشين (الباطنيَّة) .

- انظر : الكامل فى التاريخ : سابق : ٣٩٥/٥

(١٨٨)شعر دعبل الخزاعي : سابق ، ص ١٢٢- ١٢٣ .

(١٨٩)ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان : محمد عبدالمنعم خفاجى ، دار العهد الجديد ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨م ، ص : ٩ .

(١٩٠)وعندئذٍ نشأت فرقة الراونديّة ، متأثرةً بالمزدكيّة ، والمانويّة ثم كانت هناك فيما بعد فرقة الخرميّة ، وهم أتباع بابك الخرميّ ، بالإضافة إلى حركة الزنج التى أقلقت الدولة ، حينما عاثوا فى البصرة فسادا وغير ذلك من الثورات والحركات المناوئة للعباسيين المنتمية إلى مذاهب فكرية تحركها نزعات سياسية قومية ، صاحب الكثير منها نوع من الفوضى السياسية ، الاجتماعية ، انظر بالتفصيل : الملل والنحل : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى : تحقيق : محمد سيد كيلاني ، مطبعة الحلبي ، ١٩٧٦م ، ١٥٤/١ ، و الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادي، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ،مكتبة صبيح ، مصر ، الطبعة الأولى ،ص ٢٦٦ – ٢٦٩والزندقة والزنادقة :عاطف شكري أبو عوض ، دار الفكر ، عمان – الأردن ،الطبعة الأولى ، د.ت ، ص ١٢٩ – ١٣٦ .

وتعدُّ ثورة" صاحب الزنج "من أعنف الثورات التي شغلت الدولة العباسية وكلّفتها الكثير من الأموال والرجال– وهو رجل يدعى علي بن محمد– وقد انضمت إليه طائفةٌ من العبيد ، وأوقعوا الرعب والفزع في قلوب كثيرٍ من أهالي البلاد الإسلاميّة ، فاستولوا على الأهواز وحرقوها، واستولوا على البصرة وذبحوا كثيرًا من أهلها، وأشعلوا النار في المدينة، وقد دامت الحرب بينهم وبين العباسيين ما يقرب من أربعة عشر عامًا، إلى أن قُضِي على صاحب الزنج في عهد الموفق سنة ٢٧٠ هـ [١٩١] ، وقد سطر الشاعر ابن الرومي، في شعره، صورةً خالدةً للمأساة التي تعرَّضت لها ا لبصرة وأهلها، في أثناء احتلال الزنج لها، وذلك في ميميته المشهورة، ومطلعها[١٩٢] : (رمل)

ذادَ عـــن مُقلتِـــي لذيــذَ المنـــامِ ... شُـــغلها عنـــهُ بالـــدموع الســـجامِ

أيُّ نـــومٍ مـــن بعـــد مـــا حـــل بـــالبصـ ... رةِ مـــن تلكـــمُ الهنـــاتِ العظـــام

فيتألم من هذا البلاء الذى لحق بالمسلمين ونسائهم ، وهو أمرٌ كان يشبه الوهم والحلم ، فلم يكن أحدٌ ليتصور هذا البلاء ، وينتقل ابن الرومي إلى الحديث عن صاحب الزنج وخيانته ؛ فقد نصَّب من نفسه حاكمًا وخليفةً دون حقٍّ إمعانًا منه في الغيّ والضلال .

---

(١٩١) أدب الزهد في العصر العباسي " نشأته وتطوره وأشهر رجاله " : عبد الستار السيد متولي ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ،١٩٨٤م ، ص ٦٠ ، و العصر العباسي الثاني : شوقي ضيف، ، دار المعارف ، الطبعة الثانية عشرة ، ٢٠٠١م ، ص٢٦ – ٢٧ .

(١٩٢) ديوان ابن الرومي ، شرح : أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٢ م ،٣/ ٣٣٨ .

أيُّ نــومٍ مــن بعــد مــا انتهــك الــزِّنْـ | ـجُ جهــاراً محــارمَ الإســلام[193]
إنَّ هـــذا مـــن الأمــور لأمْــرٌ | كــاد أن لا يقــومَ فــي الأوهــام
لرأينــا مُسْتيْقظين أمــوراً | حسـبُنا أن تكــونَ رُؤيـا منـام
أقــدم الخــائنُ اللعــينُ عليهــا | وعلـى الله أيَّمــا إقـدام
وتسمَّى بغيــر حــقٍّ إمامــاً | لا هـدى اللّـهُ سـعيَه مــن إمــام

ويذكر السيوطي بعض فظائعهم ، فيقول: "وذكر الصولي: إنه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمئة ألف آدميّ، وقتل في يوم واحد في البصرة ثلاثمئة ألف ، وكان له منبر في مدينته يصعد عليه؛ فيسب عثمان وعليًا ومعاوية، وطلحة والزبير وعائشة ، وكان ينادي على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين وثلاثة[194]"

وفي منتصف القرن الثالث الهجري " ظهر حمدان قرمط ، والتفَّت عليه العناصر الثائرة في العراق ،ولكنَّ الخليفة المعتضد أخمد هذه الفتنة ،ولم يصبح لدعوة حمدان شأن سياسيّ لانتقال هذه الفتنة إلى جزيرة العرب "[195] ، وحوالي أواخر القرن الثالث الهجري خرب القرمطة الشام تخريبًا شديدًا ،وفي أوائل القرن الرابع امتدت غاراتهم إلى العراق ففتحوا البصرة والكوفة ،وأعملوا فيها النهب ،وألقوا الرعب في بغداد وقطعوا الطريق بين مكة والمشرق[196] .

ثم جاء أبو طاهر القرمطي فأغار على الحجيج في العام(٣١٧) هـ ، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، واقتلع الحجر الأسود من مكانه ، وأنّه منذ ذلك التاريخ وحتى

(١٩٣) نفسه : ٣ /٣٣٨ - ٣٣٩ .
(١٩٤)تاريخ الخلفاء : مصدر سابق ،ص ٢٦٤-٢٦٥ .
(١٩٥)الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : مرجع سابق ، ٦٨/٢ .
(١٩٦)السابق ، ٦٩/٢ .

العام ٣٢٦ هـ لم يحج أحد لبيت الله خوفًا من هذا الظالم،وظلَّت ثورتهم مستمرةً حتّى دخل البويهيون بغداد، فضعف أمر قرامطة البحرين والإحساء ، ودخلوا في طاعة الخليفة[١٩٧] .

ولم يكد القرن الرابع الهجرى يدخل حتى ضعفت الحكومة المركزية فى بغداد ولم يبق للخلافة من نفوذٍ فعليٍّ فى المملكة ، فكانت بلاد فارس فى يد بنى بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ثم فى أيدى الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية فى أيدى السامانية [١٩٨].

---

(١٩٧) العصر العباسي الثاني : شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص٤١- ٤٢

(١٩٨)تاريخ الخلفاء، مرجع سابق ، ص ٤١١.

٤- التَّرف ومجالس اللهو والمجون :

بعد أن استتبَّ الملك للعباسيين أخذ الترف يسري بينهم سريعًا، خاصةً بفعل الحاشية الفارسيَّة المفسدة المتعمِّدة للفساد ، ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم في التجارة العالميَّة إلى ملايين الدنانير، وشيئًا فشيئًا غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلاميَّة الأخرى[١٩٩]،و كانت الحياة العباسيَّة " تدعو الى هذا الوشي والتنسيق من جميع نواحيها ؛ فمن انغماس فى الرخاء والترف ، إلى تخلُّقٍ بأخلاقٍ فارسيَّةٍ يلائمها الافتتان والتصنع لبعدها من السذاجة والفطرة " [٢٠٠].

وكانت الأموال الوفيرة ينفق أكثرها فى بغداد ؛ فليس من الغرابة أن نسمع عن كثرة البذخ والسخاء فى دوائر الخلفاء والأمراء [٢٠١] ، وكان للشعراء القسط الأوفر من هذا العيش الخضيل ، فإن الخلفاء انصرفوا إلى الحياة يتذوَّقون نعيمها ،

---

(١٩٩) كيف نكتب التاريخ الإسلامي : محمد قطب، دار الوطن ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ، صـ١٢٦ ، ١٢٧

(٢٠٠) أدباء العرب في الأعصر العباسية : أدباء العرب في الأعصر العباسية : بطرس البستانى ، دار مارون عبود ، ١٩٧٩م ، ص٢١ .

(٢٠١)تاريخ التمدن الإسلامى :جورجي زيدان ، طبعه مطبعه الهلال،مصر ، ١٩٠٢ م ، ٢ /٦٥-٧٢ ،وقد تناول زيدان نفقات الدولة العباسية ، وجد أن مجموع النفقات كانت نحو مليونين ونصف مليون دينار فى السنة ، باعتبار سبعة آلاف دينار لكلِّ يومٍ ، كما اشتهر الموفق والمكتفى بكثرة ما جمعا من الأثواب وبكثرة التأنق فى الملبس حتى كان للموفق ستة آلاف ثوبٍ من جنسٍ واحدٍ ، وكان للمكتفى من الأثواب ما يبلغ عشرات الألوف ، وفي عهد المقتدر كانت خزانة الدولة فى أيامه مترعةً بالجواهر ، من جملتها الياقوت الذى اشتراه الرشيد بثلاثمئة ألف دينارٍ ، والدرة اليتمية التى كان وزنها ثلاثة مثاقيل إلى غير ذلك من الجواهر النفسية ، ففرَّقه المقتدر وأتلفه فى أيسر مدَّةٍ ، ولا عجب فقد كان له أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان وهم بمثابة حاشيته وحرسه ، انظر : تاريخ التمدن الاسلامى ٥-١٠٧.

والشعر من نعيم الحياة ، فقرّبوا الشعراء وجعلوهم ندماءهم ؛ فأيسر الشعراء واتّسعت ذات يدهم ، فرفهوا وأسرفوا فى اللذة ، فرقّت طباعهم ، ولانت نفوسهم ، ورقّ شعرهم ولا نت ألفاظه وقلّ استعمال الغريب ، والشعر مرآة النفس ، فإذا كانت النفس قاسيّةً خشنةً خرجت الألفاظ وحشيّةً صلبةً ، وإذا كانت لطيفةً ناعمةً خرجت الألفاظ سهلةً ليّنة[٢٠٢] ، كما تعقّدت وسائل العيش لطائفةٍ أخرى من الناس " شكّلوا طبقةً عريضةً من الفقراء فى المجتمع العباسىّ ، عاشوا حياةً بائسةً شديدة المرارة والحرمان ، ينظرون إلى غيرهم من سادات المجتمع وعلية القوم ، فيرونهم سادرين فى لهوّهم ، غارقين فى نعيم العيش دون غيرهم ، فكان هذا سببًا من الأسباب التى أدّت إلى نشوء التمايز الطبقىّ ، والاضطراب السياسىّ والانقسام القومىّ والدينىّ [٢٠٣] " .

وكان من نتائج زيادة المال والترف فى العصر العباسىّ أن كثر اقتناء الجوارى والغلمان وكان ذلك فى بغداد كما كان فى البصرة وسواها[٢٠٤] ، فقد شهد العصر العباسيّ ازديادًا واضحًا، في أعداد الجواري في البلاد لا سيّما بعد تأسيس مدينة بغداد إذ جُلِبن إليها من مختلف البلدان فكان منهنّ : الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات ومن المدينة والطائف واليمامة

---

(٢٠٢)أدباء العرب فى الأعصر العباسية : مرجع سابق ، ص٢٠ .

(٢٠٣)اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى : قحطان رشيد التميمى ، دار المسيرة، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، د.ت ،ص ٩٤-١٠٨ .

(٢٠٤) ذكر الاصفهانى أنه كان للرشيد نحو ألفى جارية ، انظر : الاغانى : مصدر سابق ، ١٠/ ١٣٦ ، ويروي المسعودى أنه كان للمتوكل أربعة آلاف جارية - مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢ م ، ٧ - ٢٦٧ .

ومصر ، وأصبح الحديث عنهنّ يشغل مجالس السلطة الحاكمة ، لا سيما الخلفاء الذين امتلأت كتب التاريخ بمغامراتهم مع الجوا ري(٢٠٥) ، يقول أبو نواس واصفًا جارية حسناء جمعت من صفات الحسن والجمال (٢٠٦) : (سريع)

أَبصَــرتُ مِــن حَيِّــيَ روميَّــة ... تَقصُــرُ عَنهــا كُــلُّ إنسِــيَّة

قَصــرِيَّةُ الطَّــرفِ شَــآمِيَّةُ ال ... خَلــوَةِ فــي نَكهَــةِ زَنجِيَّــة

صُــدغِيَّةُ السَّــاقَينِ تُركِيَّــةُ ال ... ســاعِدِ فــي قَــدِّ طُخارِيَّــة

هِندِيَّــةُ الحاجِــبِ نوبِيَّــةُ ال ... فَخــذَينِ فــي زَهــوِ عِبادِيَّــة

حيرِيَّــةُ الحُســنِ كِلِيَّــةُ ال ... أَردافِ فــي لَبَّــةِ عاجِيَّــة

وقد أنشد بشار شعرًا يعتذر فيه عن محاولته تقبيل جاريةٍ لصديقٍ له(٢٠٧) :

(متقارب)

أَتــوبُ إِلَيــكَ مِــنَ السَّــيِّئاتِ ... وَأَســتَغفِرُ اللَــهَ مِــن فَعلَتــي

تَناوَلــتُ مــا لَــم أُرِد نَيلَــهُ ... عَلــى جَهــلِ أَمــري وَفــي سَــكرَتي

وَوَاللَــهِ وَاللَــهِ مــا جِئتُــهُ ... لِعَمــدٍ وَمــا كــانَ مِــن هِمَّتــي

وَإِلّا فَمُــتُّ إِذَن ضــائِعاً ... وَعَــذَّبَني اللَــهُ فــي مِيتَتــي

فَمَــن نــالَ خَيــراً عَلــى قُبلَــةٍ ... فَــلا بــارَكَ اللَــهُ فــي قُبلَتــي

ويذكر أبوحيان الذى عاش حياته فى القرن الرابع أنّه أحصى فى حيٍّ واحدٍ فى بغداد هو حى الكرخ أربعمائة وستين جاريةً من القينات ، هذا غير ماخفى عليه وندَّ عن حصره ، ويضيف إلى ذلك مائة وعشرين حرَّةً - أى نساء غير إماء -

---

(٢٠٥)التاريخ الإسلامي العام: علي ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٧٢م، ص ٧٤٣

(٢٠٦) ديوان أبي نواس : مصدر سابق ، ١٣٢/٤ .

(٢٠٧) ديوان بشار : سابق ، ٢٧/٤-٢٨.

وخمسة وتسعين من الصبيان البدور(٢٠٨) ، كما بلغ بعضهم من التهتّك والانحطاط الاخلاقيّ الاجتماعيّ ، حتّى صاروا يستخدمون الغلمان كالجوارى ، ومن ذلك نشأ غزل المذكّر كما نراه فى شعر بعضٍ من متهتكى ذلك العصر(٢٠٩) ، من ذلك قول أبي نواس(٢١٠) : (وافر)

غَنِيتُ عَنِ الكَواعِبِ بالغُلامِ وَعَنْ شُرْبِ المُرَوَّقِ بالمُدامِ
وَعَنْ سُبُلِ الرَّشادِ بِسُبْلِ غَيٍّ وَعَنْ طَلَبِ المُحَلَّلِ بالحَرامِ
قَطَعْتُ مَقاوِدي وَخَلَعْتُ عُذْري وَأَمكَنْتُ الخَسارَةَ مِنْ لِجامي
هَوِيتُ لِشِقْوَتي رَشَأً رَبِيبًا رَخِيمَ الدَّلِّ مَغْنوجَ الكَلامِ
كَأَنَّ جَبِينَهُ قَمَرٌ تَلالا غَداةَ الدَّجْنِ مِنْ خَلَلِ الغَمامِ

ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الفن الحسين بن الضحاك الباهلي(٢١١) ، فله شعرٌ كان قد كتبه في شفيعٍ خادم الخليفة المتوكّل ، " وقد كان المتوكّل غمز شفيعًا على العبث به فقال الحسين يا سيِّدي أريد دواةً وقرطاسًا فأمر له بذلك فكتب بخطه : (طويل)

وكالوردةِ الحمراء حيّا بأحمر من الورد يمشي في قَراطِقَ كالوردِ
له عَبَثاتٌ عند كلِّ تحيّةٍ بعينيه تستدعي الحليمَ إلى الوجدِ

---

(٢٠٨) الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي ،صححه وضبطه وشرح غريبه :أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٣، ١٨٣/٢

(٢٠٩)العصر العباسي الأول : مرجع سابق ، ص٧٣ –٧٤ .

(٢١٠)ديوان أبي نواس : سابق ، ٩٤/٥–٩٥ .

(٢١١)الحسين بن الضحاك (١٥٠ – ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ – ٨٦٤ م) : هو الحسين بن الضحّاك الباهلي البصري، شاعر عباسي، مولى لباهلة بصري المولد والمنشأ ، وهو من ندماء الخلفاء ، شاعر مطبوع حسن التصرف في الشعر حلو المذهب ، عمر طويلا قارب المئة سنة، ومات في خلافة المستعين أو المنتصر.

تمنّيتُ أن أُسقى بكفّيه شَرْبةً تذكّرنى ما قد نَسيتُ من العهد

ثم دفع الرقعة إلى شفيع وقال له : ادفعها إلى مولاك ، فلما قرأها استملحها وقال : أحسنت والله يا حسين لو كان شفيع ممن تجوز هبته لوهبته لك ، وأمر له بمالٍ كثيرٍ حمل معه لمّا انصرف " [٢١٢] ، وللجاحظ رسالةٌ نفسيّةٌ تصوّر هذا القطاع من المجتمع العباسيّ في القرنين الثانى والثالث بعنوان " رسالة القيان " يحلل فيها نفسيّة القيان ويعرض الفساد الذى يعود على الرجال منهنّ وبالتالى على المجتمع تحليلاً اجتماعيًا أخلاقيًا بارعًا لايكاد يتقنه شمولًا وغوصًا وسلامة عرضٍ وإصابة هدفٍ ودقة استنتاجٍ غير الجاحظ [٢١٣] .

ولقد كانت بيوت القيانين والقينات من الكثرة بحيث ألّف أبو الفرج كتابًا بكامله عن أخبار القيان ، هذا فضلاً عن أخبار القيانين والقينات وأسمائهم وأخبارهم التى جاءت فى عديد من صفحات كتابه " الأغانى " [٢١٤]، فقد كانت بيوت القيان والحانات من مظاهر الانحلال الواضحة ذات الأثر السيئ فى المجتمع العباسي ، حيث كانت منتشرةً فى الكوفة والبصرة وبغداد وبلادٍ متفرّقةٍ فى المنطقة الفارسيّة من الأرض العباسيّة ، وهناك أيضًا الحانات أو الخمّارات التى كانت منتشرةً فى

---

(٢١٢)الأغاني : سابق ، ٦/١٨٣ .

(٢١٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق ، ص١٨٨

(٢١٤) لقد كانت الحانات من خطورة الشأن فى المجتمع ومن الكثرة فى العدد بحيث إن مؤلفاً مثل أبى الفرج الأصفهانى – وقد تخصص فى هذا الضرب من الموضوعات –يؤلف كتابين يرتبطان بهذه الحياة الغريبة هما " كتاب الخمارين والخمارات " و " كتاب الحانات .

منطقة بغداد والكوفة والبصرة والعراق والعجمى ، وكانت أكثر عددًا فى الكوفة لقربها من الحيرة العريقة فى الحانات منذ العصر الجاهلىّ [٢١٥] .

وأما ندوات المجّان من الشعراء فكانت من الانحلال والتهتُّك بحيث لم تشهد لها مثيلاً فى تاريخ المجتمع الإسلامى من قبل أو من بعد ، لقد كان الشعراء يلتقون فى الأماكن العامة ، ثم يحاول كلٌّ منهم أن يستأثر بالمجموعة فى بيته أو بستانه حيث يخلعون العذار ويعاقرون من ضروب الشراب ويمارسون من أسباب الانحراف ما شاءت لهم طبيعتهم أن يمارسوا ، وكثيرًا ما كانت بعض النساء الشاعرات الماجنات تشاركن فى هذه الندوات ، و هؤلاء لم يكنَّ من الحرائر ، وإنَّما كنَّ على الأغلب من القيان [٢١٦]،وكان القوم يفرطون فى الشراب بحيث يظلّون سكارى أيامًا موصولةً ، ولم تكن أخبارهم ونوادرهم فى هذا السبيل على قبحها تخلو من طرافةٍ .

ومن ذلك ما ذكره أبوالفرج " أن يحيى بن زياد ومجموعة من المجّان اجتمعوا فى بيت مطيع بن إياس فشربوا أيامًا تباعًا ، فقال لهم يحيى ليلةً من الليالى وهم سكارى : ويحكم ، ما صلينا منذ ثلاثة أيام فقوموا بنا حتّى نصلى ، فقام مطيعٌ فأذّن وأقام ، ثم قالوا : من يتقدم للإمامة ، فتدافعوا كل يريد أن يكون إماماً ، فقال مطيع للمغنية تقدمى فصلى بنا ، فتقدمت تصلى به غير مؤتزرةٍ إلا بغلالةٍ رقيقةٍ .....إلى آخر الحكاية " [٢١٧].

---

(٢١٥) الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق ، ص١٨٧-١٩٠

(٢١٦) السابق : ص ١٨٣

(٢١٧) الأغاني : مصدر سابق ، ٢٢٨/١٣ .

وغير بيوت المقينين والحانات كانت هناك مراكز أخرى لاحتساء الخمر والقصف والغزل في الغلمان ممثلةً في الأديرة أو الديارات ، وقد أدّت الديارات دورًا خطيرًا في حياة القصف والشراب ، فقد كان الشعراء الماجنون يترددون عليها يستوى في ذلك شعراء العراق والشام ومصر ، وكما أُلّفت كتبٌ في الحانات والخمّارات ، فقد أُلّفت كتبٌ أخرى عن الديارات التي كانت منتشرةً في العالم الإسلامىّ (٢١٨) ، فقد كان دير حنّة ، ودير بهرذان في العراق مرتادًا للشعراء وخاصةً أبي نواس الذي أذاع ذكرهما في مقطوعاتٍ من الشعر طريفة منها : (٢١٩): (بسيط)

يــا دَيــرَ حَنَّـــةَ مِــن ذاتِ الأُكَيــراحِ   مَن يَصحُ عَنكَ فَإِنّي لَستُ بِالصاحي
رَأَيــتُ فيــكَ ظِبــاءً لا قُــرونَ لَهــا   يَلعَــبنَ مِنّــا بِأَلبــابٍ وَأَرواحِ
يَعتــادُهُ كُــلُّ مَحفــوفٍ مَفارِقُـــهُ   مِــنَ الــدِّهانِ عَلَيــهِ سَحقُ أَمساحِ
فــي عُصبَةٍ لَــم يَــدَع مِــنهُم تَخَــوُّفُهُم   وُقــوعَ مــا حُــذِّروهُ غَيــرَ أَشــباحِ
لا يَــدلِفونَ إِلـــى مـــاءٍ بِآنِيَـــةٍ   إِلّا اغتِرافًــا مِــنَ الغُــدرانِ بِــالرّاحِ

وببغداد أيضًا ديرٌ يعرف بدير العذارى في قطيعة النصارى على نهر الدجاج ولابن المعتز في دير العذارى (٢٢٠): (طويل)

ونشـــربُ مــــن كرخيَّـــةٍ ذهبيَّـــةٍ   ونصفحُ عن ذنب الحوادث والدّهر
ألا ربّ أيــــامٍ مضــــين حميـــدةً   بـدير العـذارى والصـوامع والقصـر
وكـم مـن ليـالٍ مسعدات لـذي الهوى   جسـرت علـى اللـذات فـيهن بالجسـر

---

(٢١٨) الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق ، ص١٩٢-١٩٣

(٢١٩)ديوان ابي نواس : مصدر سابق ، ٣٣٣/١ .

(٢٢٠)الديارات : أبوالحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي ، تحقيق : كوركيس عواد ، دار الرائد العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م ، ص ١٠٩ .

خليلــي فــلا تطلــب فلاحــي وخلّنــي		فمــا لــي علــى لمتنــي فيــه مــن صــبر

وكان فى الموصل والجزيرة والرقّة ديارات أخرى كثيرة تردد عليها شعراء القرن الرابع أمثال الصنوبرى والسرى الرفّاء وكشاجم وغيرهم ، وكان من أشهرها ذكراً دير زكى ودير الشياطين وديرا لأعلى ودير مروان، وفي دير الشياطين يقول السري الرفّاء (٢٢١): (بسيط)

عَصَــى الرَّشَــادَ فَقَــدْ نَــادَاه مِــنْ حِــين		وَرَاكَــضَ الغَــيَّ فِــي تِلْــكَ المَيَــادِين

مــا حَــنَّ شَــيْطَانُهُ العَــاتِي إِلَــى بَلَــدٍ		إلاّ لِيَقْــرُبَ مِــنْ دَيْــرِ الشَّــيَاطين

وَفِتْيَـــةٍ زَهَـــرُ الآدَابِ بَيْـــنَهُمُ		أَبْهَــى وَأَنْضَــرُ مِــنْ زَهْــرِ الرَّيَــاحين

مَشَــوا إِلَــى الــرَّاحِ مَشْــيَ الــرُّخِّ وانْصَرَفُوا		وَالــرَّاحُ تَمْشِــي بِهِــمْ مَشْــيَ الفَــرَازين

حَتَّــى إِذَا أَنْطَــقَ النَّــاقُوسَ بَيْــنَهُمُ		مُــزَيَّنُ الخَصْــرِ رُومِــيُّ القَــرَابين

ولم يكتفوا بوصف الأديرة والحانات فقط بل رثوها أيضًا ؛ فإن أبا نواس يمرُّ ذات يوم على المدائن عاصمة الأكاسرة ويرى بعض حاناتهم المتميزة ببقايا التصاوير ، فيقيم هو وصحبه أيامًا فى هذه الأطلال يشربون ، ثم ينتهى به الأمر إلى تسجيل شعره يرثى به أطلال الحانة (٢٢٢) : (طويل)

وَدار نَــــدامى عَطَّلُوهــــا وَأَدلَجُــــوا		بِهـــا أَثَـــرٌ مِـــنهُم جَديـــدٌ وَدارِسُ

مَساحِبُ مِن جَرِّ الزِّقاقِ عَلى الثَّرى		وَأَضــغاثُ رَيحــانٍ جَنِــيٌّ وَيــابِسُ

حَبَستُ بِها صَحبي فَجَدَّدتُ عَهدَهُم		وَإِنّــي عَلــى أَمثــالِ تِلــكَ لَحــابِسُ

وَلَــم أَدرِ مَــن هُــم غَيــرَ ماشَــهِدَت بِــهِ		بِشَــرقِيِّ ســاباطَ الــدِّيارُ البَســابِسُ

---

(٢٢١) الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠-٢٠٠٠، ١٥/ ٨٦ .

(٢٢٢)ديوان أبي نواس : سابق ، ١٨٣/٣ .

أَقَمنـــا بهـــا يَومـــاً وَيَومًـــا وَثالِثًـــا وَيَومًـــا لَـــهُ يَـــومُ التَرَحُّـــلِ خـــامِسُ

تُـــدارُ عَلَينـــا الـــرّاحُ فـــي عَســـجَدِيَّةٍ حَبَتهـــا بـــأَلوانِ التَّصـــاوير فـــارِسُ

قَرارَتُهـــا كِســـرى وَفـــي جَنَباتِهـــا مَهـــاً تَـــدُريها بِالقِسِـــيِّ الفَـــوارِسُ

ويذهب صريع الغواني مذهبًا عجيبًا في أنه في مزج الخمر قتلٌ لها ، والقتل حرامٌ ، وبالتالي فأكل الميتة محرَّمٌ [٢٢٣] : (طويل)

إِذا شِـــئتُما أَن تَســـقِياني مُدامَـــةً فَـــلا تَقتُلاهـــا كُـــلُّ مَيـــتٍ مُحَـــرَّمُ

خَلَطنـــا دَمـــاً مِـــن كَومَـــةٍ بِـــدِمائِنا فَـــأَظهَرَ فـــي الأَلـــوانِ مِنّـــا الـــدَمَ الـــدَمُ

وَيَقظـــى يَبيـــتُ القَـــومُ فيهـــا بِسَـــكرَةٍ بِصَـــهباءَ صَـــرعاها مِـــنَ السُّـــكرِ نُـــوَّمُ

فَأَغضَـــت وَلِلأَكـــواسِ فـــي وَجهِـــهِ رَبُّهـــا لَهيـــبٌ كَلَـــونِ الـــوَردِ أَو هُـــوَ أَضـــرَمُ

فَمَن لامَني في اللَّهوِ أَو لامَ في النَدى أَيـــا حَسَـــنَ زَيـــدَ النَّـــدى فَهـــوَ أَلـــوَمُ

هو إذن مجتمعٌ غريبٌ هذا المجتمع العباسىّ الذى حفل بعددٍ كبيرٍ من الشعراء الذين جعلوا من اقتناص متع الحياة- حلالها وحرامها - مذهبًا ، واتَّخذوا من الخمر منهلاً ومشربًا ، ومن ثمَّ توفَّروا على معاقرتها فى إصرافٍ نال من مروءتهم ، وأقبلوا على وصفها والحديث عنها والإكثار من تناولها فى شعرهم بحيث قدَّموا لونًا متجدِّدًا متطورًا من موضوعات الشعر التى ازدهرت فى تلك الفترة الزمنية من " العباسيَّة " [٢٢٤].

---

(٢٢٣)شرح ديوان صريع الغواني ، تحقيق : سامي الدهان ، ذخائر العرب ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ، د.ت ، ص١٧٩-١٨٠ .

(٢٢٤)الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق : ص ١٩٥

٥- الزَّندقة والزُّهد والتَّصوف :

ارتبط ظهور الزندقة في العصر العباسيّ، بجملةٍ من العناصر الاجتماعيَّة والسياسيَّة؛ ذلك أن دخول غير العرب في الإسلام، واندماجهم في الحياة مع الناس، وتعلُّمهم للُّغة العربية ، قد أدى إلى وجود مجتمعٍ غير متجانسٍ؛ وبخاصةٍ إذا علمنا أنَّ عددًا منهم دخل الإسلام ؛ ليتمكَّن من الانخراط في الحياة العامة، فقد ادَّعى كثيرٌ منهم الإسلام، وأبطن ديانته الأصليَّة ، فعندما " أتت الدولة العباسيَّة انتعش الموالي،وخاصة الفرس، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم، وغلبوا على العرب، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعًا لمَّا اعتنقوا الإسلام، وكانوا لا يجرؤون في الحكم الأمويّ أن ينبسوا بكلمة، وكان همُّهم الأول أن يتحرَّروا سياسيًّا لا دينيًّا؛ فكانت دعواتهم السريَّة واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة ، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا ؛ بدأت تلعب في رؤوسهم الديانات القديمة والجديدة ؛ فكانت الزندقة" (٢٢٥) .

وأحسَّ بعض المسلمين بحاجاتٍ جديدةٍ فى الدِّين " منذ القرن الثالث الهجرى ؛ وسرعان ما تقدمت لسدِّ هذه الحاجات الديانات القديمة التى كانت دائمًا مستترةً وراء ستارٍ ظاهريٍّ ، ولاسيَّما النصرانيَّة ، من خلال الفلسفة اليونانيَّة فى عصرها الأخير فى الشرق والمشرَّبة بالنصرانيَّة ، وإنَّ الحركة التى غيَّرت صورة الإسلام فى أثناء القرنين الثالث والرابع ليست فى مجموعها سوى نتيجةٍ لدخول التيارات الفكريَّة النصرانيَّة " (٢٢٦).

---

(٢٢٥)ضحى الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، الطبعة السابعة ، ١٩٣٥ م ، ١ / ١٣٩.

(٢٢٦)الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع مرجع سابق : ٢ / ١٩ .

ويعرف الطبري الزنادقة بقوله : هم" فرقةٌ تدعو الناس إلى ظاهرٍ حسنٍ، كاجتناب الفواحش ،والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم، ومسِّ الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجًا وتحوّبًا، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين :أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق ؛ لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور " (٢٢٧).

وكان من آثار تيار الزندقة ، إطلاق العنان للشهوات مما دفع كثيرًا من الشعراء إلى" دعوة الناس إلى الفجور والإباحة، وحملهم على الاستهتار، ولم يكتفوا أن يدعوا ما يدعون إليه من غير تعرُّض للدِّين، بل تعرَّضوا له أحيانًا، وأخذوا يجهرون بأقوال فيها تهكم وسخرية .فيسخرون ممن يقول بتحريم الخمر، ويسخرون ممن يخوِّف بالنار، وممن يذكِّر بيوم البعث(٢٢٨) " ، ولبشار أشعار تتضمن مثل هذه الأفكار، إذ يقول (٢٢٩) : (بسيط)

لا خَيرَ فـي العَيشِ إن كُنّـا كَـذا أَبَـداً ... لا نَلتَقـي وَسَـبيلُ المُلتَقـى نَهِـجُ

مَـن راقَـبَ النّـاسَ لَـم يَظفَـر بِحاجَتِـهِ ... وَفـازَ بِالطَيِّبـاتِ الفاتِـكُ اللَهِـجُ

وَقَـد نَهـاكِ أُنـاسٌ لا صَـفا لَهُـمُ ... عَـيشٌ وَلا عَـدِموا خَصـمًا وَلا فَلَجـوا

قـالوا حَـرامٌ تَلاقينـا فَقَـد كَـذَبوا ... مـا فـي التِـزامٍ وَلا فـي قُبلَـةٍ حَـرَجُ

---

(٢٢٧)تاريخ الطبري ، مصدر سابق ، ٤/ ٦١٢.

(٢٢٨)ضحى الإسلام : مرجع سابق : ١ /١٤٨ .

(٢٢٩)ديوان بشار بن برد : مصدرسابق ، ٢/٧٥-٧٦ .

وقول أبي نواس عابثًا ، لا يهتم بصومٍ ولا فرق عنده بين جنةٍ أو نارٍ [٢٣٠]:

(بسيط)

لَو كانَ لي سَكَنٌ في الرّاح يُسعِدُني ... لَمَا انتَظَرتُ بشُرب الرّاح إفطارا

الرّاحُ شَيءٌ عَجيبٌ أنتَ شارِبُها ... فَاشرَب وَإن حَمَّلَتكَ الرّاحُ أوزارا

يا مَن يَلومُ عَلى حَمراءَ صافِيَةٍ ... صِر في الجِنانِ وَدَعني أَسكُنُ النّارا

كما عرَّض الشاعر العباسي أبودلامة بالصَّوم والصَّلاة ، فقال [٢٣١] :

(بسيط)

أضحى الصِّيَامُ مُنيحاً وَسطَ عَرصَتِنَا ... لَيتَ الصِّيامُ بأرضٍ دُونها حَرَشُ

إن صُمتُ أوجَعَني بَطنِي وأقلَقَني ... بين الجَوَانِح مسُّ الجُوع والعَطَشِ

وإن خَرَجتُ بلَيلٍ نَحوَ مَسجِدِهِم ... أضَرَّنِي بَصَرٌ قَد خانَهُ الغَمَشُ

وينكر أبو نواس وجود الجنة والنار [٢٣٢] : (كامل)

ما جاءني أحدٌ يخبِّر أنّهُ ... في جنّةٍ مُذ ماتَ أو في نار

فدعي معاتبتي على تركِ التُقى ... وتعتّبي فيه على الأقدار

أما العفافُ فليس ذا بأوانِهِ ... حتى يُلفّعُ بالمشيب عذاري

لو عنّ لي قدرٌ يساعدُ صرفهُ ... لرأيتِ كيف تعفّفي ووقاري

لكنني أهوى المجونَ وأشتهي ... فيما أحبُّ تهتّك الأستار

ولعلَّ ما شاع بين الناس من أمر الشعوبية والزندقة ، وما نما في العصر العباسيّ من المذاهب الفكريَّة المنحرفة كانت وراء تجافي الخلفاء ، وإعراضهم ، بل

---

(٢٣٠)ديوان أبي نواس: مصدر سابق ، ١٥٥/٣ .

(٢٣١)ديوان أبي دلامة : مصدرسابق ، ص٥١ .

(٢٣٢)ديوان أبي نواس: مصدر سابق ، ٢٢٥/٥-٢٢٦ .

بطشهم بكثيرٍ من الشعراء ، وغير الشعراء بسبب زندقتهم ، لكن هؤلاء الشعراء من أكثر أفراد المجتمع اتهامًا، فأصبحوا هدفًا للسلطة، وعرضةً للسجن والإعدام [٢٣٣] .

ولمَّا تولَّى الخلافة الخليفة المهدي، رأى أن شرَّ هذه الفئة قد تفاقم، فعمد إلى محاربتهم، و استحدث وظيفة صاحب الزنادقة ، ووكل إليه مهمة تعقُّبهم والقضاء عليهم، ولم يكن السيف هو السلاح الوحيد في محاربة الزنادقة، بل كانوا يحاولون إقناعهم ومناقشتهم لترك ما هم عليه، كما أمرالمهدي المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ، وقد سار الرشيد على سنَّة المهدي، فإنه كان يناقش الملحدين قبل قتلهم، فمن تاب عفا عنه[٢٣٤].

ويروي السيوطي : " أخذ هارون الرشيد زنديقًا، فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزنديق :لم تضرب عنقي؟ قال له :أريح العباد منك، قال :فأين أنت من ألف حديثٍ وضعتها على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم - كلُّها ما فيها حرفٌ نطق به ؛ قال :فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها، فيخرجانها حرفًا حرفًا "[٢٣٥] .

لقد غلا القوم فى تلك الفترة العباسيَّة الباكرة واشتطُّوا فى طلب الدنيا وبالغوا فى طلب الملذات وأسرفوا فى الركض وراء الشهوات ، ولم يقف بهم الأمر عند ذلك بل اندفعوا إلى الزندقة والخروج عن ربقة الإيمان ، فكان من البداهة أن يظهر تيارٌ

---

(٢٣٣)أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجرى : عبدالحكيم بلبع ، دار نهضة مصر ، ط ٣ ، ١٩٧٩م ، ص : ٩٦ – ٩٧.

(٢٣٤)صورة الخلافة في الشعر العباسي : مرجع سابق ، ص٩٩–١٠٠

(٢٣٥) تاريخ الخلفاء : مرجع سابق ، ١ / ٢١٦.

آخر على نقيض تيار اللذة وطلب المتعة والإقبال على الحياة ، إنه تيار الزهد والابتعاد عن مباهج الحياة والدعوة إلى التحقير من شأنها والتفكير في الموت والنظرة إلى الحساب والعقاب والعودة إلى التقى والإيمان(٢٣٦).

ومن الشعراء الذين سلكوا هذا الاتجاه في أشعارهم أبو العتاهية ، فقد كانت فكرة المصير الفكرة الأساسية التي ترددت في ديوانه بصورةٍ واسعةٍ،من ذلك (٢٣٧): (كامل)

يــا أيُّهــا الحَــيُّ الَّــذي هُــوَ مَيِّــتٌ   أفْنَيــتَ عُمــرَكَ بِالتَّعَلُّــلِ وَالمُنَــى
أمَّــا المَشــيبُ فَقَــد كَســاكَ رِداءَهُ   وَابتَــزَّ عَــن كَتفيــكَ أَثــوابَ الصِّــبا
وَلَقَــد مَضــى القَــرنُ الَّــذينَ عَهِــدتَهُم   لِسَــبيلِهِم وَلَــتَلحَقَنَّ بِمَــن مَضــى
وَلَقَــلَّ مــا تَبقــى فَكُــن مُتَوَقِّعــاً   وَلَقَــلَّ مــا يَصــفو سُــرورُكَ إِن صَــفا
وَهِــيَ السَّــبيلُ فَخُــذ لِــذَلِكَ عُــدَّةً   فَكَــأَنَّ يَومَــكَ عَــن قَريــبٍ قَــد أَتــى
إِنَّ الغِنَــى لَهُــوَ القُنُــوعُ بِعَينِــهِ   مــا أَبعَدَ الطَبــعَ الحَــريصَ مِــنَ الغِنــى

وقد ظهر في هذا العصر رجال اتَّخذوا من التقشُّف والبعد عن الدنيا وملذَّاتها طريقًا في حياتهم و" اشتهر جماعةٌ كثيرةٌ في ذلك ، وكانوا المثل الأعلى في الإيمان، أمثال عبد الله بن المبارك، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوريّ، وداود الطائيّ، والفضيل بن عيَّاض، نقرأ ترجمتهم فتتبين فيهم ورعًا وتقوى، وإيمانًا صادقًا، وهروبًا من الاتصال بوالٍ أو أميرٍ، ورفض أي منصبٍ يعرضه عليهم العباسيون"(٢٣٨) .

---

(٢٣٦) الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق ، ص٢١٠ .
(٢٣٧)ديوان أبي العتاهية: مصدر سابق ، ص٢٦ .
(٢٣٨) ضحى الإسلام : مرجع سابق ، ١٥٩/١.

بل إنَّنا نجد من الشعراء الذين عرفوا في شبابهم بالخلاعة والمجون من يتجهون إلى التوبة إلى الله في أشعارهم ويبدون ندمهم ، ومن هؤلاء أبو نواس ذلك [٢٣٩] : (مجزوء الرجز)

إلهَنا ما أعدلَكْ مليكَ كُلِّ مَنْ مَلَكْ
لَبَّيكَ قد لَبَّيتُ لَكْ
لَبَّيكَ إنَّ الحَمدَ لَكْ وَالمُلكَ لا شَريكَ لَكْ
ما خابَ عَبدٌ سَأَلَكْ أَنتَ لَهُ حَيثُ سَلَكْ
لَولاكَ يا رَبُّ هَلَكْ

وكذلك صالح بن عبدالقدوس الذي اتُّهم بالزندقة ، يقول في الزهد والعزف عن الدنيا والندم على الذنوب [٢٤٠] : (كامل)

فوحق من سمك السَماء بقُدرة وَالأَرضَ صير لِلعِبادِ مهادا
إن المصِّر على الذنوب لَهالِك صَدَقت قَولي أو أَرَدت عِنادا

ومن أشهر النساء الزاهدات في العصر العباسي رابعة العدوية ، ومن شعرها في الزهد: (رمل)

يا طبيبَ القلبِ يا كلَّ المنى جُدْ بوصلٍ منكَ يشفي مهجتي
يا سروري يا حياتي دائمًا نشأتي منكَ وأيضًا نشوتي
قدْ هجرتُ الخلقَ جمعًا أرتجي منكَ وصلاً فهوَ أقصى منيتي

(٢٣٩)ديوان أبي نواس : مصدر سابق ، ٥/٥٣٠-٥٣١ .

(٢٤٠)طبقات الشعراء : عبد الله بن محمد ابن المعتز ، عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، د.ت ،ص٩١، ٩٢ .

أما التصوُّف فقد بدأت مقدمات التصوُّف في الظهور في العصر العباسيّ الأول، وما إن جاء القرن الثالث الهجري، حتى كانت موجة التصوُّف قد اتَّسعت [٢٤١].

ويعد الحلاج [٢٤٢]من أشهر شعراء الصوفيَّة ليس في العصر العباسيّ فقط ، بل في التاريخ العربيّ والإسلاميّ كله ، وقد استطاع الحلاج أن يعبر عن النقط

---

(٢٤١) وكان أول ظهور طوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠هـ . ٨٠٠م ، وذلك فى مصر ، " ففى عام ٢٠٠هـ ظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف ، فيما زعموا ، ويعارضون السلطان فى أمره ؛ وترأس عليهم رجل " منهم ، يقال له أبو عبدالرحمن الصوفى " ، وكان أول من تكلم فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر ، وجمع الهمة والمحبة والعشق ، والقرب ، والأنس ، أبوحمزه محمد ابن إبراهيم الصدفى البغدادى (المتوفى عام ٢٦٩هـ)؛ ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس المنابر ببغداد أحد ، وكان تلميذ أحمد بن حوقل ، وهو الذى خاطبه بقوله له : ياصوفى ! ثم جاء أبو سعيد الحراز البغدادى (المتوفى عام ٢٧٧هـ ٨٩٠م) ، وهو تلميذ ذى النون المصرى ، فكان أول من تكلم فى " الفناء " ، وهو من أقوال الغنوصيين القديمة . وهكذا خرج الصوفية عن طريقهم الأول بالكلية ؛ فعلى حين أنهم كانوا فى أول الأمر تدفعهم غيرة الأتقياء إلى التدخل فى حياة الجماعة وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى حمل تلاميذ السريّ السقطي مذاهب الصوفية البغداديين إلى أنحاء المملكة الإسلامية ؛ فحملها موسى الأنصارى بمرو (توفى حوالى عام ٣٢٠هـ . ٩٣٣ م) إلى خراسان ، والروذبارى (المتوفى حوالى عام ٣٢٢هـ . ٩٣٤م بالفسطاط) إلى مصر ، وأبو زيد الأدمى (المتوفى بمكة عام ٤٣١هـ . ٩٥٢م) إلى جزيرة العرب ؛ وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد أبى على محمد بن عبدالوهاب الثقفى (المتوفى سنه ٣٢٨هـ . ٩٤٠م) ؛ وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالى آخر القرن الرابع . انظر بالتفصيل : كتاب الولاة : أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي : تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م ، ص ١٦٢، و الفهرست : مصدر سابق :ص ١٨٣ ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى: تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م ، ج١ /١٦٠-١٨٢ .

الدقيقة في تفكيره ،وعمّا كان له من نزوعٍ قويٍّ إلى إفناء المخلوقات في الخالق تعبيرًا أدبيًّا يتجلي فيه الحذق والمهارة المدهشة ، كما تأثر فكره بالمعتزلة ،فقد أخذ عنهم فكرة تنزيه الذّات الإلهية عن جميع الصفات الإنسانية وجميع صفات الحوادث – كما أخذ عنهم تسمية الذّات الإلهية باسم الحقّ (٢٤٣) ، ومن أقواله تلك (٢٤٤) : (سريع)

سُبحانَ مَن أظهَرَ ناسوتُهُ   سِرَّ سَنا لاهَوتِهِ الثاقِبِ
ثُمَّ بَدا في خَلقِهِ ظاهِراً   في صورَةِ الآكِلِ وَالشارِبِ
حَتّى لَقَد عايَنَهُ خَلقُهُ   كَلَحظَةِ الحاجِبِ بِالحاجِبِ

فهو يشير في الأبيات إلى عقيدة الحلول ، حيث يذكر أن الصورة البشرية هي تجلٍّ للذّات الإلهية ، وكذلك إشارته إلى حلول الخالق في صورة المخلوقين حتّى أنّ الخلق يرون الخالق ويعاينوه في مخلوقاته ، كما تردّد في شعره مصطلح (الحلول) بلفظه صراحةً في قوله (٢٤٥) : (خفيف)

---

(٢٤٢) الحلاج : اسمه الحسين بن منصور ويكنى أبا الغيث ، أصله مجوسى من أهل فارس ، ونشأ بواسط ، وقيل بتستر ، وخالط الصوفية وتتلمذ لسهل التسترى ، ثم قدم بغداد ولقى أباالقاسم الجنيدى ، وكان الحلاج مخلطا يلبس الصوف والمسوح تارة ، وطاف بالبلاد ثم قدم فى آخر الامر بغداد وبنى بها دارا ، واختلفت آراء الناس واعتقادهم فيه وظهر منه تخليط ، وتنقل من مذهب الى مذهب ، واستغوى العامة بمخاريق كان يعتمدها ، فلما نمى هذا الفساد منه تقدم المقتدر الى وزيره حامد بن العباس بإحضاره ومناظرته ، فأحضره الوزير وجمع له القضاة والائمة ونوظر فاعترف بأشياء أوجبت قتله ، فضرب ألف سوط على أن يموت ، فما مات ، فقطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته . انظر : الفخرى فى الأداب السلطانية : مرجع سابق ، ص ٢٦٠ – ٢٦١

(٢٤٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : مرجع سابق ، ٥٤/٢ .

(٢٤٤) العصر العباسي الثاني : مرجع سابق: ص ٤٧٩

(٢٤٥) العصر العباسي الثاني : مرجع سابق ، ص ٤٨٠

أَنــتَ بَــينَ الشَــغافِ وَالقَلــبِ تَجــري مِثــلَ جَــري الــدُموعِ مِــن أَجفــاني
وَتُحِــلُّ الضَــميرَ جَــوفُ فُــؤادي كَحُلــولِ الأَرواحِ فــي الأَبــدان
لَــيسَ مِــن ســاكِنٍ تَحَــرَّكَ إِلّا أَنــتَ حَرَكتَــهُ خَفِــيَّ المَكــان
يــا هِــلالاً بــدا لِأَربَــعِ عَشــرٍ فَثَمــانٍ وَأَربَــعٍ وَاثنَتــان

فإن كان مجون القوم فى أقوالهم وأشعارهم ومجالسهم أعطى صورة كريهة عن مجتمع هؤلاء القوم الذين لم يكن عصرهم كله شرًا ، بل كان عصر الثقافة والتأليف وبداية الثورة الفكريَّة العلميَّة الإسلاميَّة ، كذلك نجد فى مقابلة" اشتطاط بعض القوم نحو الانحراف وانتهابهم اللذَّات ، اتجاهًا مغايرًا يهدم شعورهم باللَّذة وينذر بفناء الدنيا ويبشِّر بالآخرة ، ويتَّخذ من الموت قارعًا ومنبِّهًا ومن الحشر والحساب والثواب والعقاب وسيلةً لتنبيه الغافلين وتقريع اللاهين" (٢٤٦).

(٢٤٦) الشعر والشعراء في العصر العباسي : مرجع سابق ، ص٢٢٣ .

٦- السجن والأسر :

الحريّة هدفٌ يسعى الإنسان إلى تحقيقه وممارسته، وهي حقٌّ من الحقوق الشخصيَّة، التي يسعى الإنسان إلى المحافظة عليها والدفاع عنها، والسجن لما فيه من استلاب الحريَّة، تعافه النفس، وتملُّ منه الروح، وهو محنةٌ عظيمةٌ، تستدعي الحزن، وتستلزم العزاء، وإذا لازم هذه المحنة، محنٌ أخرى ؛ كالمرض، وشماتة الأعداء، وحسد الأقارب وتخاذل النصير ؛ فإن المحنة تتعاظم، ثم تتعدد وجوه الشكوى تبعًا لذلك(٢٤٧) .

فقد وجد العباسيّون أنَّه من الضروري إنشاء السجون لتثبيت الاستقرار، وردع العابثين، وقد أدرك أبو جعفر المنصور ذلك منذ أول تخطيطه لمدينة بغداد(٢٤٨)، فقد ذكر اليعقوبي عند تعداده سكك المدينة مكان وجود سجن المطبق بين باب البصرة وباب الكوفة فقال : " سكة المطبق وفيها الحبس الأعظم الذي يسمى المطبق وثيق البناء محكم السور" (٢٤٩)، وقد تذوَّق مرارة السجن مجموعةٌ من شعراء العصر العباسي سواء أكان السجن في سجون الدولة العباسية أم في سجون أعدائها ، وظهرت آلام هذه التجربة بصورةٍ واضحةٍ في أشعارهم بما يعكس ذاتيَّة كلٍّ منهم ؛ ومن أكثر شعراء العباسيين تأثُّرًا بالسجن أبو فراس الحمداني وقد عانى أبوفراس في

---

(٢٤٧)تجربة السجن في شعر أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد : عامر عبد الله عامر عبد الله ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس، فلسطين ، ٢٠٠٤ م ، ص٩٩

(٢٤٨)السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية : عبد الرؤوف جبر القططي ، رسالة ماجستير ، كلية الأداب ، الجامعة الإسلامية بغزة ، ٢٠١٢ م ، ص٢٠

(٢٤٩)البلدان : أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٤٢٢ ، ص٢٨

أسره من السجن وظلمته، والقيد وقسوته، والغربة ووحشتها، والمرض وآلامه ؛ فعبّر عن هذه الآلام في قوله [٢٥٠] : (طويل)

يَقولونَ لي بعتَ السَلامَةَ بالرَدى ... فَقُلتُ أَما وَاللَهِ مالي خُسرُ
وَهَل يَتَجافى عَنيَ المَوتُ ساعَةً ... إِذا ماتَجافى عَنيَ الأَسرُ وَالضُرُّ
هُوَ المَوتُ فَاختَر ما عَلا لَكَ ذِكرُهُ ... فَلَم يَمُتِ الإِنسانُ ماحَيِيَ الذِكرُ
وَلا خَيرَ في دَفعِ الرَدى بِمَذَلَّةٍ ... كَما رَدَّها يَوماً بِسَوءَتِهِ عَمرُو
يَمُنّونَ أَن خَلّوا ثِيابي وَإِنَّما ... عَلَيَّ ثِيابٌ مِن دِمائِهِمُ حُمرُ
وَقائِمُ سَيفٍ فيهِمُ انذَقُ نَصلُهُ ... وَأَعقابُ رُمحٍ فيهِمُ حُطِّمَ الصَدرُ

فهو يذكر معاتبة أصحابه له على عدم فراره ووقوعه في أسر الروم ، إلّا أنّه يبدي إيمانه أنّه بالرغم من أنّ الأسر والموت يتساويان عنده إلّا أن الإنسان حيٌّ طالما بقي ذكره محمودًا بين الناس ، فلا خير في عيش الذلّ والهوان ، وعلى ما في هذا الأسر من ألمٍ إلّا أنّ عزمه قويٌّ ومازال قومه يقدرونه بينهم وما زال يفخر بهذه المنزلة حيث يقول [٢٥١] :

سَيَذكُرُني قَومي إِذا جَدَّ جِدُّهُم ... وَفي اللَيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ
فَإِن عِشتُ فَالطَعنُ الَذي يَعرِفونَهُ ... وَتِلكَ القَنا وَالبيضُ وَالضُمَّرُ الشُقرُ
وَإِن مُتُّ فَالإِنسانُ لابُدَّ مَيِّتٌ ... وَإِن طالَتِ الأَيّامُ وَانفَسَحَ العُمرُ
وَلَو سَدَّ غَيري ماسَدَدتُ اكتَفَوا بِهِ ... وَما كانَ يَغلو التِبرُ لَو نَفَقَ الصُفرُ
وَنَحنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عِندَنا ... لَنا الصَدرُ دونَ العالَمينَ أَو القَبرُ
تَهونُ عَلَينا في المَعالي نُفوسُنا ... وَمَن خَطَبَ الحَسناءَ لَم يُغلِها المَهرُ

---

(٢٥٠)ديوان أبي فراس الحمداني ، شرح : خليل الدويهي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤ م ، ص ١٦٥ .

(٢٥١) السابق : ص١٦٥ .

ومن رهافة حسّ أبي فراس الحمداني، خطابه لموجودات الطبيعة، باثًّا إليها شكواه؛ علّه يجد، في ذلك، العزاء والسلوان، وحدث أن سمع الشاعر حمامةً تنوّح على شجرةٍ عاليةٍ فخاطبها قائلاً [٢٥٢] : (طويل)

أَقـولُ وَقَـد ناحَـت بِقُربـي حَمامَـةٌ أَيـا جارَتـا هَـل تَشـعُرينَ بِحـالي
مَعـاذَ الهَـوى ماذُقـتِ طارِقَـةَ النَـوى وَلا خَطَـرَت مِنـكِ الهُمـومُ بِبـالِ
أَتَحمِـلُ مَحـزونَ الفُـؤادِ قَـوادِمٌ عَلـى غُصُـنٍ نـائي المَسـافَةِ عـالِ
أَيـا جارَتـا مـا أَنصَـفَ الـدَهرُ بَينَنـا تَعـالَي أُقاسِـمكِ الهُمـومَ تَعـالَي
تَعـالَي تَـرَي روحـاً لَـدَيَّ ضَـعيفَةً تَـرَدَّدُ فـي جِسـمٍ يُعَـذَّبُ بـالِ
أَيَضـحَكُ مَأسـورٌ وَتَبكـي طَليقَـةٌ وَيَسـكُتُ مَحـزونٌ وَيَنـدِبُ سـالِ
لَقَـد كُنـتُ أَولـى مِنـكِ بِالـدَمعِ مُقلَـةً وَلَكِـنَّ دَمعـي فـي الحَـوادِثِ غـالِ

تظهر المعاناة النفسيَّة في الأبيات ، فالدموع تذرف من الكلمات كما تقطر الحسرة من معاني الأبيات ، وتسيطر الآهات الحزينة والدموع والحسرات عليها ، وقد لجأ أبو فراس إلى ذلك لتفريغ الآهات المكبوتة في نفسه ، وليتخلص من تلك الآلام والأحزان التي تجتاح كيانه في ظلّ هذا الأسر .

وقد يصوِّر الشاعر نفسه وهو في سجنه سيفًا إلّا أنّه مغمَدٌ، وهزبرًا في عرينه، ويسلّي نفسه بكثيرٍ من التشبيهات والصور البيانيَّة مثلما فعل عليّ بن الجهم [٢٥٣]، يقول عندما حبس[٢٥٤]: (كامل)

قالَـت حُبِسـتَ فَقُلـتُ لَـيسَ بِضـائِرٍ حَبسـي وَأَيُّ مُهَنَّـدٍ لا يُغمَـدُ

---

(٢٥٢) السابق : ص ٢٨٢ .

(٢٥٣) http://www.alukah.net/literature_language/١١٨٤/٥١٧٩/#ixzz٢uWGmr٧sc

(٢٥٤)ديوان علي بن الجهم : سابق ، ص٤١-٤٣

أوَمـا رَأيـتِ اللَيـثَ يَـألَفُ غيلَـهُ　　كِبـراً وَأوبـاشُ السِبـاعِ تَـرَدَّدُ
وَالشَـمسُ لَـولا أنّهـا مَحجوبَـةٌ　　عَـن ناظِرَيـكِ لَمـا أضـاءَ الفَرقَـدُ
وَالبَـدرُ يُدرِكُـهُ السِـرارُ فَتَنجَلـي　　أيّامُـهُ وَكَأنَّـهُ مُتَجَـدِّدُ
وَالغَيـثُ يَحصُـرُهُ الغَمـامُ فَمـا يُـرى　　إلّا وَرَيِّقُـهُ يُـراحُ وَيَرعُـدُ
وَالنـارُ فـي أحجارِهـا مَخبـوءَةٌ　　لا تُصـطَلى إن لَـم تُثِرهـا الأزنُـدُ
وَالزاعِبيَّـةُ لا يُقيـمُ كُعوبَهـا　　إلّا الثِقـافُ وَجَـذوَةٌ تَتَوَقَّـدُ

وعندما صلبه طاهر بن عبد الله والي خراسان بأمرٍ من الخليفة المتوكّل وقد صلبه مجردًا من الثياب يومًا ثم أنزله أنشد بن الجهم (٢٥٥): (كامل)

هَـل كـانَ إلّا اللَيـثَ فـارَقَ غيلَـهُ　　فَرَأيتَـهُ فـي مَحمَـلٍ مَحمـولا
لا يَـأمَنُ الأعـداءُ مِـن شَـدّاتِهِ　　شَـدّاً يُفَصِّـلُ هـامَهُم تَفصـيلا
مـا عابَـهُ أن بُـزَّ عَنـهُ لِباسُـهُ　　فَالسَـيفُ أهـوَلُ مـا يُـرى مَسـلولا
إن يُبتَـذَل فَالبَـدرُ لا يُـزري بِـهِ　　أن كـانَ لَيلَـةَ تِمِّـهِ مَبـذولا
أو يَسـلُبوهُ المـالَ يُحـزِنُ فَقـدُهُ　　ضَـيفاً ألَـمَّ وَطارِقـاً وَنَـزيلا
أو يَحبِسـوهُ فَلَـيسَ يُحـبَسُ سـائِرٌ　　مِـن شِـعرِهِ يَـدَعُ العَزيـزَ ذَليلا

وسجن المتنبي وقد أبدى في سجنه صبرًا ، فهو يقول مخاطبًا سجّانه أبا دلفٍ نافيًا الشعور بالرهبة والوحشة والظلام وكلّ أشكال المعاناة (٢٥٦): (منسرح)

أهـونُ بِطـولِ الثَّـواءِ وَالتَّلَـفِ　　وَالسِجنِ وَالقَيـدِ يـا أبـا دُلَـفِ(٢٥٧)
غَيـرَ اختِيـارٍ قَبِلـتُ بِـرَّكَ بـي　　وَالجـوعُ يُرضـي الأُسـودَ بِـالجِيَفِ

---

(٢٥٥)السابق : ص ١٧٢ .

(٢٥٦)الصورة البيانية عند شعراء السجون في العصر العباسي : عباس المصري ، مجلة جامعة الخليل للبحوث ، المجلد ٤ ، العدد ١ ، ٢٠٠٩م ، ص١٦٩.

(٢٥٧)ديوان المتنبي : سابق ، ٢/٢٨٠-٢٨١.

كُـن أَيُّهـا السِـجنُ كَيـفَ شِـئتَ فَقَـد ... وَطَّنـتُ لِلمَـوتِ نَفـسَ مُعتَـرِفِ
لَـو كـانَ سُـكنايَ فيـكَ مَنقَصَـةً ... لَـم يَكُـنِ الـدُرُّ سـاكِنَ الصَـدَفِ

فهو يرى أنَّ السجن ليس منقصةً للسجين كما هو الحال للدُّرة الحبيسة في الصدفة ، ولكن يظهر أنَّ سجنه قد طال ، وبسببٍ من اضطهاده وإلحاق الجوع والمرض والاغتراب عليه ، كتب إلى والي حمص قصيدةً يستعطفه بها [٢٥٨] : (متقارب)

أَمالِـكَ رِقّـي وَمَـن شَـأنُهُ ... هِبـاتُ اللُجَـينِ وَعِتـقُ العَبيـدِ
دَعَوتُـكَ عِنـدَ انقِطـاعِ الرَجـا ... ءِ وَالمَـوتُ مِنّـي كَحَبـلِ الوَريـدِ
دَعَوتُـكَ لَمّـا بَرانـي البَلـى ... وَأَوهَـنَ رِجلَـيَّ ثِقـلُ الحَديـدِ
وَقَـد كـانَ مَشـيُهُما فـي النِعـالِ ... فَقَـد صـارَ مَشـيُهُما فـي القُيـودِ
وَكُنـتُ مِـنَ النـاسِ فـي مَحفِـلٍ ... فَهـا أَنـا فـي مَحفِـلٍ مِـن قُـرودِ
تُعَجِّـلُ فِـيَّ وُجـوبَ الحُـدودِ ... وَحَـدّي قَبـلَ وُجـوبِ السُـجودِ

ولم يكن حبس المتنبي في السجن ما آلمه فقط ، بل يؤلمه إقامته الطويلة حبيسًا في بيته مريضًا لا يفارق الفراش ، فيشكو ذلك قائلاً [٢٥٩]: (وافر)

أَقَمـتُ بِـأَرضِ مِصـرَ فَـلا وَرانـي ... تَخُـبُّ بِـيَ المَطِـيُّ وَلا أَمـامي
وَمَلَّنِـيَ الفِـراشُ وَكـانَ جَنبـي ... يَمَـلُّ لِقـاءَهُ فـي كُـلِّ عـامِ
قَلِيـلٌ عائِـدي سَـقِمٌ فُـؤادي ... كَثيـرٌ حاسِـدي صَـعبٌ مَرامـي
عَلِيـلُ الجِسـمِ مُمتَنِـعُ القِيـامِ ... شَـديدُ السُـكرِ مِـن غَيـرِ المُـدامِ

---

(٢٥٨)السابق : ١/٣٤٥-٣٤٦ .
(٢٥٩) نفسه : ٤/ ١٤٥-١٤٦ .

وكان عبيد الله بن يحيى بن خاقان قد أوغر صدرالمتوكّل على إبراهيم بن المدبر حتّى أذن له في حبسه فقال وهو محبوسٌ [٢٦٠]: (وافر)

تسلى ليس طولُ الحبسِ عاراً ... وفيهِ لنا مِن الله اختيارُ
فلولا الحبس ما بُلِي اصطبارٌ ... ولولا الليلُ ما عُرفَ النهارُ
وَما الأيّام إلّا معقبات ... ولا السُلطان إلا مستعار
وَعَن قَدر حُبستُ فَلاَ نَقِيضٌ ... وَفيما قَدّرَ اللهُ الخَيارُ
سَيُفْرَجُ ما ترين إلى قليلٍ ... مقدره وإنْ طالَ الإسَارُ

وله في حبسه قصيدة يقارن فيها بين حاله في السجن وحال الخمر التي تزداد بالحبس حسنًا وبهجةً ، ويصوّر نفسه في السجن بالجواد في المضمار ، والدرة في قعر البحر ، ويصبّر نفسه بأنّ الأيّام تمضي والأمور إلى نهايةٍ[٢٦١]: (طويل)

ألستِ ترينَ الخمر يظهرُ حسنُها ... وبهجتُها بالحبس في الطين والقار
وما أنا إلا كَالجوادِ يصُونه ... مقوّمه للسَّبْق في طَيّ مضمار
أو الدُرةِ الزهراء في قعر لُجّةٍ ... فلا تُجتَلَى إلا بهوَلٍ وأخطار
وهل هو إلا منزلٌ مثلُ منزلي ... وبيتٌ ودارٌ مثلُ بيتي أو داري
فلا تنكري طولَ المدَى وأذى العِدى ... فانَّ نهاياتِ الأمور لإقْصار
لعلّ وراءَ الغَيب أمراً يسرُّنا ... يقدِّرُه في علمِه الخالِقُ الباري
وإني لأرجو أن أصُولَ بجعفر ... فأهضمَ أعدائي وأُدرِكَ بالثّار

---

(٢٦٠)الأغاني : مصدرسابق ، ٢٢/ ١١١ .
(٢٦١)السابق : ٢٢/ ١١٢.

أمَّا أبو العلاء المعري فبعد عودته من بغداد قرَّر أن يعتزل الناس جميعًا وسمَّى نفسه رهين المحبسين، وعبَّر عن ثلاثة سجونٍ يعيشها بقوله[٢٦٢]: (وافر)

أَرانـــي فـــي الثَّلاثَـــةِ مِـــن سُـــجوني فَـــلا تَســـأَل عَـــن الخَبَـــرِ النَبيـــثِ
لِفَقـــدِيَ نـــاظِري وَلُـــزومِ بَيتـــي وَكَـــونِ الـــنَفسِ فـــي الجِسَـــدِ الخَبيـــثِ

(٢٦٢) اللزوميات : أبو العلاء المعري ، تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د .ت ، ١٨٨/١ .

٧- الطبيعة ومظاهر الحضارة العباسيَّة :

إذا أمعنَّا النظر في الأدب العربي عامة ، والأدب العبّاسي خاصة نجد أن الوصف قد شهد تطوّرًا بارزًا ملفتًا للانتباه، إذ حظرت الطبيعة في الإبداع العربي الشعري بقوة، وقد يرجع إلى طبيعة البيئة العباسية الواسعة وما شُيِّد فيها من قصورٍ وحدائق ورياض فتنت الشعراء وألهمتهم الشعر، فراحوا يصفونها حسب وجهات نظرهم المختلفة، بل بالغوا في وصفها إلى درجة أن استبدلوا المقدمات الطلليَّة والغزليَّة والخمريَّة بمقدمة وصف الطبيعة ، وخير من مثَّل هذا الاتجاه في الشعر العباسيّ أبو تمام ودعبل الخزاعي، وقد "اتَّسع الوصف في هذا العصر في الطبيعة ، في الشعر والنثر، فكثر وصف الرياض فيها من ماءٍ وأشجارٍ وأزهارٍ وأثمارٍ، وبما يتقلَّب فيها من الرِّيَاح والأمطار والبرد والثلج، كما كثر وصف الحيوان والأطيار والوحوش ، ولقد رأينا غرضًا في وصف الطبيعة يصبح في هذا العصر فنًّا قائمًا بذاته هو فن الزهريات... وقد كثر أيضًا وصف مجالس الشراب ووصف الأطعمة ووصف الأشربة ووصف الحليّ والأقلام والجيوش والسفن والدواب وأثاث البيوت وأدوات الصنَّاع ، ولا يعني هذا أنَّ هذه الأغراض قد استجدَّت في هذا العصر، بل يلفت نظرنا فيها أمران :أنَّ القول فيها قد اتَّسع وأنَّها كانت تأتي في الشعر والنثر فنًّا وجدانيًّا مخصوصًا بالكلام "(٢٦٣) .

وقد أخذت آثار الحياة الحضاريَّة الجديدة تتَّضح في الشعر العباسي، وسيطرت على مناحي الحياة، ومنها الأدب والشعر، وقد كان للفرس أثرٌ كبيرٌ في هذا

---

(٢٦٣) تاريخ الأدب العربي - الأعصر العباسية : عمر فروخ ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ، ط ١٩٧١ م ، ص٤١٠

التأثير الحضـاريّ مما نبّه الشعراء إلى الحياة الحضرية الجديدة التي جذبتهم إليها شيئًا فشيئًا، فأقبلوا عليها يستمدون منها أغراضـهم ومعانيهم، ثمَّ أخذ الشعر يمثّل الحضارة بالتدريج حتّى أصبح يحملُ طابع الحضارة في الذوق والمظهر والصورة .

ويعدُّ الصنوبريُّ (٢٦٤) من أكثر شعراء العصر العباسي وصفًا للطبيعة ، و هو الجانب الذي يلفت إليه الأنظار ويميزه بين شعراء عصره ، " فقد كان له بالزهريات ولها شديدا، حيث أنّنا نجدها في معظم موضوعات شعره خاصةً في وصف الرياض حيث أكثر منها إلى درجةٍ فاق فيها كلَّ الشعراء فكانت بذلك خصوصيته الشعريّة وتجربته من خلال ولعه بها ، فهو يشير إلى ذلك مبيّنًا شعوره إزاء الرياض، وما تبثُّه في روحه من أحاسيس يترجمها كلماتٍ في شعره، وحبُّه لها تعدّى مرحلة العشق" (٢٦٥)، وفي هذا قال (٢٦٦): (كامل)

أمـــا الريـــاضُ فَعِشْـــقُها عِشْـــقُ	لـــم يبـــقَ فـــيَّ لغيرهـــا طُـــرُق
انظـــر إلـــى حِـــذْقِ الربيـــع فمـــا	إن كـــاد يعـــدلُ حِذْقَـــه حِـــذْق
نُسَـــخُ الريـــاض أتتـــك تَقـْـرأ مِـــن	بُعـــدٍ كـــأن ســـطورها مَشْـــق
نُشِـــرَت علـــى تلـــك الرُّبـــى خُلَـــلٌ	ممـــا يحـــوكُ الرعـــدُ والبـــرق
قمصـــانُ خِيْـــريٍّ ملوّنـــةٌ	وغلائـــلٌ مِـــنْ سَوْسَـــن زُرْق

(٢٦٤)الصنوبري (ت ٣٣٤ هـ) : أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي الحلبي الأنطاكي أبو بكر.شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار، تنقل بين حلب ودمشق وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة.

(٢٦٥)صور الزهريات في شعر الصنوبري – دراسة أسلوبية :وفاء عزيز ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب والعلوم ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر ، ٢٠١٠ م ، ص ٤٨ .

(٢٦٦)ديوان الصنوبري : تحقيق ، إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م ، ص٣٦٣-٣٦٤ .

ظــــلُّ البهـــــارُ تُضــــيءُ أوْجُهُـــــهُ　　فيضــــيءُ منهـــا الغـــربُ والشَّـــرق
أمــــــا ابتســـــامُ الأقحـــوانِ إذا　　عايَنْتَـــــــهُ فكأنَّـــــــهُ حُـــــــقُّ
وكــــــأنَّ وردَ البــــــاقلاءِ عَلـــــى　　خُضْـــر الغصـــون حمـــائمٌ بُلْـــق

فالشاعر يجد بالرياض وجدًا لا يضاهيه وجدٌ فلا حديث له غيره، حيث تنسخ منها كتب تقرأ سطورها عن بعد لنضارتها، وينتشر الحليّ الذي يصنعه البرق والرعد، من قمصان خيريٍّ ملونةٍ وسوسن أزرق وبهارٍ مضيءٍ، وأحداق النرجس المتلألئة تخرج منها من نقطٍ حمراء، وابتسامة الأقحوان تبدو كوعاء، أمّا نبت الباقلاء فهو كالحمامات التي يجمع لونها السواد والبياض .

أما الطائي الأكبر – أعني أبا تمام – فقد تركت الحضارة العباسية أثرها في نفسه " فهذّبتها وثقّفتها.. لهذا كان من الطبيعي أن يتوقف الشاعر عند مشاهد الحسن والجمال، تهتزُّ لها نفسه، فيحلّق معها في لحظة انسجام وجدانيٍّ ، وإذا كان الحسن نسبيًّا في البشر، فإنّه كاد يطغى على مظاهر الطبيعة العباسيَّة ، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في شاعر ذوّاقة كأبي تمام ، ولعلّها أروع صور الامتزاج الوجداني بالطبيعة، حيث يأتلف الذّاتيّ بالموضوعيّ [٢٦٧] " يقول في وصف الأرض واخضرارها بعد حلول الربيع [٢٦٨]: (كامل)

يـــــا صــــاحِبَيّ تقصَّـــيا نَظَرَيْكُمَـــــا　　تريـــا وجـــوهَ الأرضِ كيـــفَ تصـــورُ
تريـــا نهـــاراً مشمســـاً قـــد شـــابهُ　　زهـــرُ الربـــا فكأنمـــا هـــو مقمـــرُ
دنيـــا معـــاشٌ للـــورى حتـــى إذا　　جلـــيَ الربيـــعُ فإنمـــا هـــيَ منظـــرُ

---

(٢٦٧)الصورة الفنية في شعر الطائيين : وحيد صبحي كبّابه ، اتحاد الكتاب العرب دمشق ، ١٩٩٩، ص٤١

(٢٦٨)ديوان أبي تمام : ١٩١/٢ .

أضحتْ تصوغُ بطونها لظهورها نَوْراً تكادُ له القلوبُ تنُورُ
مِن كلِ زَاهِرَةٍ ترَقْرَقُ بالنَّدى فكأنها عينٌ عليه تحدرُ
تَبْدُو وَيحجُبُها الجَمِيمُ كأنَّها عَذْرَاءُ تَبْدُو تارَةً وتخَفَّرُ
حتَّى غَدَتْ وَهَدَاتُها ونِجَادُها فِئتينِ في خِلَعِ الرَّبِيعِ تَبَخْتَرُ

يقدّم أبو تمام دعوةً إلى مواكبة الجمال والسحر واكتشاف أسراره الخفيَّة التي لا تدركها إلّا عينٌ شاعرةٌ ، وهي دعوةٌ للعيون أن تتعمّق شاعريّتها فتمجّد صورًا عديدةً تتولّد عن بعضها في حركة تحوُّلٍ دائمٍ صورة النهار المشمس الذي يحوّل زهر الرُبا إلى يومٍ مقمرٍ ؛ أي خالط بياض الزهر والأنوار بياض النهار وغلب ضوء الشمس فيه فكأنه مقمرٌ لا مشمسٌ أي أنَّ النهار يخضع لتحوُّل جذريٍّ فهو ناصع الوضوح لكنّ وضوحه يلطُف بزهر الربا الذي يجلِّل الأرض ، فالنهار بإشراقه وبروز الحدود المطلقة فيه تختفي نصاعته وتجلّل بغلالةٍ شفّافةٍ تذوب فيها الأشياء وتتداخل وتنتفي الحدود .

ثم ينتقل إلى وصف الدنيا قبل الربيع فهى معاشٌ للإنسان يطلب منها رزقه ، أمّا عند قدوم الربيع تصبح الطبيعة حضورًا جماليًّا ، ثم يقدّم صورةً لرحم الأرض يغطّى بأزاهير غضّةٍ تؤثر في القلوب بجمالها فتنور بدورها وتبتهج ، ويحدث التكامل في هذا البيت بين الطبيعة والإنسان ، وتبلغ القصيدة ذروة الوضوح لإجلاء التحوّلات العميقة وهو تجسيدٌ لثراء الجمال في الربيع وإلحاحٌ على التحام الإنسان بالطبيعة ، فتبدو الأزاهير أحداقًا مترقرقةً بالدمع (صورة الندى) ، وفي صورة عذراء تبرز تارةً وتختفي تارةً أخرى فتغيب ، وهنا نرى ثنائيّة الحضور والغياب ؛ مما يخلق عالمًا ثريًّا بالغموض يغمر الطبيعة بسحره ، فيكثّف الشاعر التداخل بين

عناصر الوجود في اتحاد وهاد الطبيعة ونجادها ؛ فهي تختال لأنَّ الربيع ألبسها حلةً رائعةً فتظهر تقابليَّةً أخرى بين الأعلى والأسفل ، وتبدو صورة العذراء رمز الجمال الخالص .

ولابن الرومي أبياتٌ جميلةٌ في وصف الطبيعة وجمالها ، منها أبياته التالية في وصف النرجس [٢٦٩]: (كامل)

خَجِلتْ خُدودُ الوردِ مِن تفضيلِهِ	خجلاً تَورُّدُها عليه شاهدُ
لم يخجل الورد المورّد لونه	إلا وناحِلُه الفضيلةَ عانِدُ
فضلُ القضيةِ أن هذا قائد	زهرَ الرياض وأن هذا طاردُ
شتَّان بين اثنين هذا مُوعِدٌ	بتسلب الدنيا وهذا واعدُ
وإذا احتَفَظْتَ به فأمتَعُ صاحب	بحياته لو أن حيَّاً خالدُ
للنرجس الفضلُ المبينُ وإن أبى	آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ
من فضله عند الحِجَاج بأنه	زهر ونَور وهو نبت واحدُ
يحكي مصابيحَ السماء وتارةً	يحكي مصابيحَ الوجوه تَراصَدُ

ويتساءل الوأواء الدمشقيُّ " إذا كانت الرياض تأسر العيون ، وإذا كان الإنسان يهوى الخلاعة والمجون ، فماذا لو اجتمع الاثنان ؟ عندئذٍ لا يستطيع أن يفيق إنسانٌ ، وتكتمل اللوحة جمالًا حين يرسم صورةً لعشق العرار الذي يغار على معشوقه النرجس ، والشقائق تعلوها حمرة الخجل ، كأنَّها عاشقٌ وجلٌ ، وقد كسا الندى الأوراق فتباينت ألوانها ما بين البيضاء والحمراء " [٢٧٠]: (متقارب)

(٢٦٩)ديوان ابن الرومي : سابق ، ٤١٢/١-٤١٣ .

(٢٧٠)شعر الوأواء الدمشقي – دراسة فنية : جمال زاهر ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ م ، ص٧٣-٧٤

زَمـــانُ الرِّيـــاضِ زَمـــانٌ أَنِيـــقُ ... وَعَـيْشُ الخَلاعَـةِ عَـيْشٌ رَقِيـقُ[٢٧١]

وَقَـــدْ جَمَـــعَ الوَقْـــتُ حَالَيْهمـــا ... فَمَـــنْ ذا يُفِيـــقُ وَمَـــنْ يَسْـــتَفِيقُ

أَيـا مَـنْ هُـوَ الفَـوْزُ لـي والمُنَـى ... ومَـنْ هُـوَ بالحُـبِّ مِنِّـي حَقِيـقُ

تَغَـنَّمْ بِنـا غَفْلَـةَ الحَادِثـا ... تِ فَوَجْـهُ الحَـوادِثِ وَجْـهٌ صَـفِيقُ

أَبِرْ لَحْـظَ عَيْنِـكَ وَامْزِجْـهُ فِـي ... مُـرُوجِ الرِّيـاضِ تَجِـدْها تَشُـوقُ

تَـرى مِـزْوَجَ الحُسْـنِ فِـي مُفْـرَدٍ ... جَلِيـلُ المَحاسِـنِ فيـهِ دَقِيـقُ

بَهـارٌ بَهِيـرٌ بِـهِ غَيْـرَةٌ ... عَلَـى نَـرْجِسٍ وَشَـقِيقٌ شَـفِيقُ

إِذا قابَـلَ الزَّهْـرُ زَهْـرَ الخُـدودِ ... فَـأَيْنَ الخَـلاصُ وَأَيْـنَ الطَّرِيـقُ

فَـذا عاشِـقٌ دَنِـفٌ خـائِفٌ ... وَذا خَجِـلٌ وَكَـذاكَ العَشِـيقُ

مَـدَاهِنُ يَحْمِلْـنَ طَـلَّ النَّـدى ... فَهاتِيـكَ تِبْـرٌ وَهَـذا عَقِيـقُ

وكان للورد أوفى نصيبٍ من وصف الشاعر عليّ بن الجهم ، " فهو يبثُّ فيه الحياة ، ويملأ نفسه بحبِّ الجمال " [٢٧٢] ، فيقول في وصفه[٢٧٣] : (بسيط)

لَـم يَضْـحَكِ الـوَردُ إِلّا حـينَ أَعجَبَـهُ ... حُسنُ النَباتِ وَصَوتُ الطائِـرِ الغَـرِدِ

بَـدا فَأَبـدَت لَنـا الـدُنيا مَحاسِـنَها ... وَراحَـتِ الـراحُ فـي أَثوابِهـا الجُـدُدِ

مـا عايَنَـت قُضُـبُ الرَيحـانِ طَلعَتَـهُ ... إِلّا تَبَـيَّنَ فيهـا ذِلَّـةُ الحَسَـدِ

بَـينَ النَـديمَينِ وَالخِلَّـينِ مَضـجَعُهُ ... وَسَـيرُهُ مِـن يَـدٍ مَوصـولَةٍ بِيَـدِ

قامَـت بِحُجَّتِـهِ ريـحٌ مُعَطِّـرَةٌ ... تَجلـو القُلـوبَ مِـنَ الأَوصـابِ وَالكَمَـدِ

فَبادَرَتـهُ يَـدُ المُشـتاقِ تَسـأَلُهُ ... إِلـى التَرائِـبِ وَالأَحشـاءِ وَالكَبِـدِ

---

(٢٧١)ديوان الوأواء الدمشقي : تحقيق : سامي الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٣م ، ص١٥٥-١٥٦

(٢٧٢) الوصف في شعر علي بن الجهم : أمل رجيان معيوف القثامي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٢٧ هـ ، ص ٤٩-٥٠

(٢٧٣)ديوان علي بن الجهم :سابق ، ص٨٩-٩٠.

كَـأنَّ فيـهِ شِـفاءً مِـن صَـبابَتِهِ أو مانِعـاً جَفْـنَ عَينَيـهِ مِـنَ السَـهَدِ
لا عَـذَّبَ اللَـهُ إلا مَـن يُعَذِّبُـهُ بِمُسْـمِعٍ بـارِدٍ أو صـاحِبٍ نَكِـدِ

ومع كل هذا التغنِّي بالطبيعة وجمالها إلَّا أنَّنا نجد الشعراء كثيرًا ما شكوا من الطبيعة وقسوتها عليهم فى القرنين الثانى والثالث " فقد تغيَّرت سبل العيش وتعقَّدت الأمور وسكن الناس فى المدن بمختلف طبقاتهم ، كما وجِد منهم من قصُر حظُّه عن ملاحقة وسائل المعيشة التى تتطلَّبها حياة المدينة من المسكن والمأكل والمشرب وعندئذٍ أخذ يشكو من الطبيعة ومظاهرها فى هذه الحقبة ، فنجد الشعراء قد لجُوا بالشكوى من قسوة الطبيعة وتحديها لهم بما فيها من مظاهر مؤلمةٍ فوصفوها وصفًا دقيقًا فى أشعارهم وشكوا منها ومن هوامها ودوابِّها " (٢٧٤) .

(٢٧٤) الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري : سابق ، ص٩٣ .

٨- الموت :

تُعدُّ معادلة الحياة والموت من المعادلات التى شغلت تفكير الإنسان على مرّ العصور والأزمان ، حيث ظلّت تلك المعادلة " طلسمًا سرمديًّا تدور حوله حياة الكائنات برمّتها، دورانًا مجنونًا غامضًا وجاذبيًّا في آنٍ واحدٍ ، فتلك المعادلة الصعبة والحسّاسة شغلت فكر الإنسانيّة منذ أقدم العصور ، فتجسّدت فكرةً أزليّةً ضبابيّةً مُقلقةً في ذهن الإنسان – على اختلاف ثقافته وانتمائه وبوعيٍ منه أو من دون وعيٍ – تحمّل في طيّاتها السحريّة المؤلمة القاهرة التي يعجز العقل البشريُّ عن الوقوف بوجهها أو معالجتها ، تلك الفكرة الطاغية تواصل رقصها المأتميّ دون توقُّف ، فتشدُّ الناس جميعًا إليها ، وترى المبهور برقصها ، والخائف من تعبيرات وجهها، وآخر مذهولاً لايفقه معنى حركاتها ، وهي في كلّ هذا مجنونةٌ بقوّتها العارمة الجبّارة ، مستمتعةٌ بما تُحدثه من خرابٍ وألمٍ وانسحاقٍ " . (٢٧٥)

فإشكاليّة الحياة والموت من المسائل الإنسانيّة المعقّدة التي أرّقت الإنسان ، وأثارت مخاوفه ، ولا غرو ، " فليس أقسى على الموجود الذي يملك الحريّة ، ويحنُّ إلى الأبديّة ، وينزع نحو اللانهائيّة ، من أن يشعر بأنَّ لحريّته حدودًا ، وأنَّ الزمان ينشب أظفار الفناء في عنقه، وأنَّ التناهي هو نسيج وجوده" (٢٧٦) ، إلى جانب أنَّ حتميّة الموت مع عدم معرفة وقته جزءٌ من إشكاليّة الموت " ، يقول عبد الرحمن

---

(٢٧٥)المفارقة فى الشعر الجاهلى– دراسة تحليلية ، رسالة ماجستير ، ملاذ ناطق علوان ، كلية التربية للبنات– جامعة بغداد ، ٢٠٠٤ م : ص١٩

(٢٧٦)ثنائية الموت والحياة في شعرأبي فراس الحمداني: د. أحمد فوزي الهيب مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،، العدد ١٠٥ ، السنة السابعة والعشرون – كانون الثاني ٢٠٠٧ – المحرم ١٤٢٨، ص٢٠ .

بدوي عن الموت : "إنَّه إمكانيَّةٌ معلَّقةٌ، بمعنى أنَّه لابدَّ أن يقع يومًا ما ، هذا يقينيٌّ لا سبيل مطلقًا إلى الشكِّ فيه ، ولكنَّني من ناحيةٍ أخرى في جهلٍ مطلقٍ فيما يتعلَّق بالزمان الذي سيقع فيه " (٢٧٧) ، في حين يشير فرويد إلى ذلك الوجود المزدوج لغريزتي الموت والحياة ، فهو يقول بصراحةٍ ووضوحٍ : " غاية الحياة هي الموت ، ثم نراه يقرر أيضًا: أنَّ كلَّ إنسانٍ لديه دافعٌ إلى إعدام نفسه، ولكنَّ هذا الدافع يختلف في مقداره وقوَّته باختلاف الأشخاص" (٢٧٨) ، وهذا أيضًا تلميذه وصديقه (هانز ساخس) يقول أيضًا : " إنَّ جميع مظاهر الحياة هي نتيجة ذلك التجاذب الذي لا نهاية له بين غريزة الحياة بانتصاراتها الظاهرة وغريزة الموت بقوَّتها الساكنة الخفيَّة التي لا تُقهر" (٢٧٩) .

وقد شكَّل الدَّهر فى الفكر الشعريّ العربيّ المنازع الذى لا يُقهر ،" وتصورات الشاعر لهذا الخارق المعجز فى غموضه ، وكانت لكلِّ شاعرٍ وجهةٌ فى مناغمة هذا الخارق المعجِز (الدَّهر) ؛ إلَّا أنَّهم جميعًا يحبّون الحياة ، وإن كانوا يرون أنَّ الموت قدرهم المحتوم ؛ أى انتصار الدهر فى نهاية المطاف" (٢٨٠) ، فهذا أبو تمام يوضِّح فلسفته فى الحياة، ونظرته إلى الموت من أنَّه نهاية كلِّ حيٍّ مهما طال عمره فى الدنيا ومهما أصاب منها (٢٨١) : (طويل)

---

(٢٧٧)الموت والعبقرية : عبد الرحمن بدوى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٦

(٢٧٨) السابق : ص ١٠.

(٢٧٩) نفسه : ص ٧ . ٨.

(٢٨٠) قراءة جديدة لشعرنا القديم : صلاح عبد الصبور ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ، (د.ت)، ص٣٠ .

(٢٨١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى: ٥٩٤/٤ .

أَلِلعُمـــرِ فـــي الـــدُنيا تُجِـــدُّ وَتَعمُـــرُ ... وَأَنـــتَ غَـــداً فيهـــا تَمـــوتُ وَتُقبَـــرُ

تُلَفِّـــحُ آمـــالاً وَتَرجـــو نَتاجَهـــا ... وَعُمـــرُكَ مِمّـــا قَـــد تُرَجّيـــهِ أَقصَـــرُ

وَهَـــذا صَـــباحُ اليَـــومِ يَنعـــاكَ ضَـــوؤُهُ ... وَلَيلَتُـــهُ تَنعـــاكَ إِن كُنـــتَ تَشـــعُرُ

تَحـــومُ عَلـــى إِدراكِ مـــا قَـــد كُفيتَـــهُ ... وَتُقبِـــلُ بِالآمـــالِ فيـــهِ وَتُـــدبِرُ

وَلا حَـــولُ مَحتـــالٍ وَلا وَجـــهُ مَـــذهَبٍ ... وَلا قُـــدرَ يُرجيـــهِ إِلّا المُقَـــدِّرُ

لَقَـــد قَـــدَّرَ الأَرزاقَ مَـــن لَـــيسَ عـــادِلاً ... عَـــنِ العَـــدلِ بَـــينَ النـــاسِ فيمـــا يُقَـــدِّرُ

فَـــلا تَـــأمَنِ الـــدُنيا إِذا هِـــيَ أَقبَلَـــت ... عَلَيـــكَ فَمـــا زالَـــت تَخـــونُ وَتُـــدبِرُ

فَمـــا تَـــمَّ فيهـــا الصَـــفوُ يَومًـــا لِأَهلِـــهِ ... وَلا الرِّفـــقُ إِلّا رَيثَمـــا يَتَغَيَّـــرُ

وَمـــا لاحَ نَجـــمٌ لا وَلا نَرَّ شـــارِقٌ ... عَلـــى الخَلـــقِ إِلّا حَبـــلُ عُمـــرِكَ يَقصُـــرُ

فطمع الإنسان فى الدنيا وطول آماله ، مع أن عمره قصيرٌ جدًا قياسًا بهذه الآمال ، كما ينصح الطائيُّ الإنسان ألّا يأمن هذه الدنيا عندما تقبل عليه فلا تلبث أن تخونه وتأخذه على حين غرةٍ ، فإنَّ العمر قصيرٌ والإنسان مهما طال عمره مصيره إلى الموت ، و نلاحظ أنَّ هذه الحكم تتوالى دون انقطاعٍ كالسيل المنهمر، وهي تلامس الذهن بطريقةٍ متواصلةٍ .

أمّا البحتريّ فيصور الموت تارةً فى صورة الفاجعة والمصيبة الكبرى ، وتارةً أخرى يرى أنَّ الموت حقٌّ وقدرٌ على الجميع ، وتارةً يرى الموت فى صورة الظالم المتجبِّر ، وقد يراه أيضا فى صورة الشرف والكرامة للإنسان ، ففى قصيدته التى يمدح فيها الحسن بن وهب بعد أن نكَّب الواثق بآل وهب ، يقول البحتريّ [٢٨٢] : (وافر)

---

(٢٨٢) ديوان البحترى: سابق : ٢ /٩٥٩ .

أَنـــاةً أَيُّهـــا الفَلَـــكُ المُـــدارُ أَنَهـــبٌ مـــا تَطَـــرَّفُ أَم جُبـــارُ

سَـــتَفنى مِثـــلَ مـــا تَفنـــي وَتَبلـــى كَمـــا تُبلـــي فَيُـــدرِكُ مِنـــكَ ثـــارُ

تُنـــابُ النائِبـــاتُ إِذا تَناهَـــت وَيَـــدمُرُ فـــي تَصَـــرُّفِهِ الـــدَمارُ

وَمـــا أَهـــلُ المَنـــازِلِ غَيـــرُ رَكـــبٍ مَطايـــاهُم رَواحٌ وَابتِكـــارُ

لَنـــا فـــي الـــدَهرِ آمـــالٌ طِـــوالٌ نُرَجّيهـــا وَأَعمـــارٌ قِصـــارُ

حيث يذكر البحتريّ تصاريف الأقدار وسنن الأيّام ، فيؤكّد أنّ الفلك لابدّ له من فناء وزوالٍ مثلما أفنى وأزال من قبل ، فكأنّ الفلك عليه ثأرٌ واجب القصاص ، ثم يقدّم أمثلةً للعظة والاعتبار ؛ فأهل الدنيا ما هم إلّا سفرٌ فى مجيئهم إلى الدنيا وذهابهم عنها ، وانظر إلى البيت الأخير عندما يقارن البحتري بين أحلام المرء فى الدنيا وآماله الطوال وعمره القصير فيها ، وفى قصيدةٍ أخرى يعزّى البحتريّ محمد بن حميدٍ في ابنته[٢٨٣] : (خفيف)

ظَلَـــمَ الـــدَهرُ فَـــيكُمُ وَأَســـاءَ فَعَـــزاءً بَنـــي حُمَيـــدٍ عَـــزاءَ

أَنفُـــسٌ مـــا تَكـــادُ تَفقِـــدُ فَقـــداً وَصُـــدورٌ مـــا تَبـــرَحُ البُرَحـــاءَ

أَصـــبَحَ السَـــيفُ داءَكُـــم وَهُـــوَ الـــدا ءُ الَّـــذي لايَـــزالُ يُعيـــي الـــدَواءَ

وَانتَحـــى القَتـــلُ فَـــيكُمُ فَبَكَينـــا بِـــدِماءِ الـــدُموعِ تِلـــكَ الـــدِماءَ

وَسَـــقاةً أَن يَجـــزَعَ المَـــرءُ مِمّـــا كـــانَ حَتمـــاً عَلـــى العِبـــادِ قَضـــاءَ

فالبحتريُّ إذ يعزى بنى حميدٍ فى وفاة ابنتهم يصور الدّهر فى صورة الطاغية الظالم الذى يسيئ إلى الآخرين من خلال الموت ، ثم يواصل حديثه عن الموت بوصفه داءً تغلّب على كلّ دواء ، كما يؤكد على حقيقة أنّ الموت حقٌّ على

---

(٢٨٣) السابق : ١ / ٣٩ .

كلّ العباد ، وأنَّ من السفاهة أن يجزع الإنسان من الموت فهو حتمٌ وقضاء لابدَّ منه ، وما بين البيت الأول والأخير يصف الموت على أنه سوءٌ وإساءةٌ من الدهر وينهي الأبيات بحقيقة أنَّ الموت حقٌّ على كلّ العباد وقضاءٌ نافذٌ .

ويعلن الشريف الرضيُّ[٢٨٤] عن طلاق الدنيا بعزمٍ شديدٍ ، فيطلقها ألمًا ، ويعجب ممَّن يتمسَّكون بها ناسين أنَّ التقوى هي الزاد الوحيد بها ، وأنَّ نهاية الجميع واحدةٌ [٢٨٥]:(كامل)

مـا لـي إلـى الـدُنيا الغَـرورَةِ حاجَـةٌ ... فَليَخـزَ سـاحِرُ كَيـدِها النَفّـاثُ

طَلَّقتُهـا أَلفـاً لِأَحسِـمَ داءَهـا ... وَطَـلاقُ مَـن عَـزَمَ الطَـلاقَ ثَـلاثُ

سَـكَناتُها مَحـذورَةٌ وَعُهودُهـا ... مَنقوضَـةٌ وَحِبالُهـا أَنكـاثُ

أُمُّ المَصـائِبِ لا يَـزالُ يَروعُنـا ... مِنهـا ذُكـورُ نَوائِـبٍ وَإِنـاثُ

إِنّـي لَأَعجَـبُ مِـن رِجـالٍ أَمسَـكوا ... بِحَبائِـلِ الـدُنيا وَهُـنَّ رِثـاثُ

كَنَـزوا الكُنـوزَ وَأَغفَلَـوا شَـهَواتِهِم ... فَـالأَرضُ تَشـبَعُ وَالبُطـونُ غِـراثُ

أَتُـراهُمُ لَـم يَعلَمـوا أَنَّ التُقـى ... أَزوادُنـا وَدِيارُنـا الأَجـداثُ

والإنسان في حياته " دائم البحث عن معنىً لوجوده وهو دائم السعى لتحديد هدفه من الحياة ، والوجود ليس مجرد وجودٍ بيولوجيٍّ ، بل إنَّ وجود الإنسان يتمثَّل كذلك فى حريته فى اختيار هدفٍ لحياته يتَّفق مع المعنى الذى يصل إليه فى

---

(٢٨٤) الشريف الرضي (٣٥٩ – ٤٠٦ هـ / ٩٦٩ – ١٠١٥ م) : محمد بن الحسين بن موسى الرضي العلوي الحسيني الموسوي، أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم ، مولده ووفاته في بغداد .

(٢٨٥) ديوان الشريف الرضى : شرحه : محمود مصطفى حلاوة ، شركة الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ٢٩٥/١ .

حياته، ثم إلزام نفسه بهذا الهدف والعطاء فى سبيله ، وبقدر ما يبذل الإنسان فى سبيل رسالته يحقّق وجوده" [٢٨٦]، فإذا لم يجد هدفًا للحياة اتَّجه إلى الموت كما فعل أبو العلاء المعريّ [٢٨٧]:(طويل)

إذا لَـم يَكُـن خَلفـي كَبيـرٌ يُضـيعُهُ   حِمـامي وَلا طِفـلٌ فَفـيمَ حَيـاتي

وَمـا العَـيشُ إلّا عِلَّـةٌ بُرؤُهـا الـرَدى   فَخَلّـي سَـبيلي أنصَـرِف لِطِيـاتي

حيث يرى أبو العلاء أنَّ الحياة لا قيمة لها إذا لم يكن للمرء من كبيرٍ يخدمه ، أو صغيرٍ يقوم على تربيته ورعايته ، وفي هذه الحال تصبح الحياة علةً والموت دواءً ، وفي موضع آخر من شعره يقول [٢٨٨]:(كامل)

وَيَـدُلُّني أَنَّ المَمـاتَ فَضـيلَةٌ   كَـونُ الطريـقِ إِلَيـهِ غَيـرَ مُيَسَّـرِ

لَـولا نَفاسَـتُهُ لَسُـهِّلَ نَهجُـهُ   كَـأَذى الضَـعيفِ عَلـى اللَئـيمِ المَكسِـرِ

آلَيـتُ لَـو رُزِقَ العَـديمُ فَطانَـةً   لَنَفـى الهُمـومَ وَبـاتَ غَيـرَ مُحَسَّـرِ

وَلَـئِن يُعَـدُّ هَمامَـةً خَيـرٌ لَـهُ   مِن أَن يُضافَ إِلى ذَواتِ المَنسَرِ [٢٨٩]

فأبو العلاء يريد أن يؤكد على فضيلة الموت وخيريَّته على الحياة ، ويسوق الدليل على ذلك في كون الطريق إلى الموت غير ميَّسرة ، ومعروفٌ أنَّ طرق المجد والمعالي والأمجاد والنفائس ليست سهلةً ولا ميسورةً ، وبالتالي فالموت كذلك أمرٌ نفيسٌ .

---

(٢٨٦)فى طبيعة الإنسان : عبد السلام عبد الغفار، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ م ، ص٥٧ .

(٢٨٧)اللزوميات : سابق ،١/١٧١

(٢٨٨)السابق : ٤٠٨/١.

(٢٨٩)ذَواتِ المَنسَرِ : جوارح الطير .

وقد بلغ الأمر بالمتنبي أن يجعل من الموت سبيلاً للنجاة من الحياة البائسة ، وطوق نجاةٍ من الهموم فيقول[٢٩٠]:(وافر)

فَـإن أَمـرَضْ فَمـا مَـرِض اصـطِباري ... وَإن أُحمَـم فَمـا حُـمَّ اعتِزامـي

وَإنْ أَسـلَمْ فَمـا أَبقـى وَلَكِـنْ ... سَـلِمتُ مِـنَ الحِمـامِ إلـى الحِمـامِ

تَمَتَّـعْ مِـنْ سُـهادٍ أو رُقـادٍ ... وَلا تَأمُـلْ كَـرىً تَحـتَ الرِجـامِ

فَـإنَّ لِثالِـثِ الحـالَينِ مَعنـىً ... سِـوى مَعنـى انتِباهِـكَ وَالمَنـامِ

فالاتجاه نحو الموت " اتجاهٌ يشعر الإنسان بالخوف والتناقض فى قبوله ورفضه، فهو اتجاهٌ متناقضٌ يسترعى الانتباه ويتعيَّن التوقف عنده، ومرجع تناقضه أنّنا نسلّم به ولا ننكره ولكنّنا مع ذلك نكرهه ونمقته ، نتوقّعه ولكنّ معظمنا يودُّ من صميم قلبه أن يتأخر مجيؤه"[٢٩١] .

ومن هنا فقد ظهرت قضية الموت في أشعار العباسيين بصورةٍ ارتبطت بالذّات ارتباطًا وثيقًا " فالشعور بمشكلة الموت لا يتحقق لدى الإنسان إلّا حينما يشعر بشخصيته وذاته المستقلّة عن الآخرين شعورًا قويًّا طالما أنَّ الموت قضيةٌ شخصيّةٌ صرفةٌ بالنسبة له من حيث ذاته"[٢٩٢] .

---

(٢٩٠)ديوان المتنبي : سابق ، ١٤٩/٤.

(٢٩١)قلق الموت: أحمد محمد عبد الخالق ، سلسلة كتب ثقافية شهرية تصدرها المجلة الوطنية بالكويت ١٩٩٨ م ، ص ١٦ – ١٧.

(٢٩٢)الموت والعبقرية ، مرجع سابق ص ٧-٨.